تحفة الخطيب

"أصول الخطابة - آدابها - صفات الخطيب"

الطبعة الثانية منقحة ومزيدة

تقديم العلامة

محمد بن إسماعيل العمراني

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

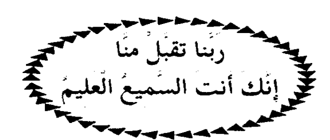
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



تحفة الخطيب

«أصول الخطابة - آدابها - صفات الخطيب»

بسم الله الرحمن الرحيم





دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة
القاضي العلامة محمد بن إسماعيل العمراني [1]

الحمد لله وَحْدَهُ ، والصلاةُ والسلامُ على من لا نبيَّ بَعْدَهُ ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ، وجُنْدِهِ .

وبعدُ ، فهذا كتاب (تحفة الخطيب) الذي دبَّج كلماته قلمُ العلاّمة الفاضل (أبي عبد الله فيصل بن قائد الحاشديّ) ـ حفظه الله، ونفع بعلومه! ـ، قد جمع في طيّه جملةً صالحةً من الفوائد العلميَّة ، والفرائد الأدبية، وبناءً على ذلك فإنّي أُوصي بسرعة طبعه ونشره ؛ لتعمَّ الفائدةُ الجميعَ من محبّي العلم ، وعُشّاق المعرفة ـ إن شاء الله تعالى ـ ، فجزى الله المؤلّف خيراً ، وزاد في الناس من أمثاله ، وما زال رمزاً للعالم العامل [2] ، ومثلاً كاملاً من أمثلة النشاط العلميِّ، والإصلاح الدِّينيِّ .

« آمينَ آمينَ ، لا أَرْضَى بواحدةٍ حتَّى يُضافَ إليها أَلْفُ آمينَا » .

وسبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيم .

محمد بن إسماعيل العمراني
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

(١) هو حفيد شيخ الإسلام الشوكانيّ بالتّلمذة ، والمفتي في إذاعة صنعاء .
(٢) هذا من حسن ظنّ الشيخ بي، فجزاه اللهُ خيراً على ثقته بي ، وأسأل الله أن يوصلنا إلى هذه المنزلة بمنّه وكرمه ، آمين .

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله ، نَحْمَدُهُ ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا ، مَنْ يهده اللهُ فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شريكَ له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

[الأحزاب : ٧٠، ٧١] .

أمَّا بَعْدُ ، [١] فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ ، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله - ﷺ - يقولها بين يَدَيْ كلامه ، وفي خطبته ، وقد زَهِدَ فيها كثير من خطباء هذا الزمان إلا مَنْ رحم ربُّك ، وروى هذه الخطبة ستَّة من الصَّحابة، وقد أخرجها جمع من الأئمَّة فى مصنَّفاتهم، منهم :
مسلم في «الصَّحيح» (١٥٣/٦ - ١٥٦ - ١٥٧ مع شرح النَّووي) ، وأبو داود في «السُّنَن» (٢٨٧/١) رقم (١٠٩٧)، والتِّرمذيُّ في «الجامع» (١١٠٥) ، والنَّسائيُّ في «المجتبى» (١٠٤/٣ - ١٠٥) ، وابن ماجه في «السُّنن» (٥٨٥/١) ، والحاكم فى «المستدرك» (١٨٢/٢ - ١٨٣)، والطَّيالسىُّ في «المسند» (٣٣٨)، والطحاويُّ في «المشكل» (١، ٢) ، والبيهقىُّ في «السُّنن الكبرى» (١٤٦/٧) و(٢١٤/٣)، والطبرانىُّ في «المعجم الكبير» (١٠٠٧٩) ، (١٠٠٨٠) ، والبغوىُّ فى «شرح السُّنَّة» (٢٢٦٨) ، وعبد الرزَّاق في «المصنَّف» (١٠٤٤٩) و(١٢٤٤٩)، وأحمد في «المسند» (٣٧٢٠، ٤١١٥، ٤١١٦)، وابن الجارود في «المنتقي» (٦٧٩).
قال الألبانيُّ في خاتمة رسالته « خطبة الحاجة » ما نصه : « قد تبيَّن لنا من مجموع الأحاديث المتقدِّمة - أنه هذه الخطبة تفتح بها جميع الخطب، سواء كانت خطبة نكاحٍ، أو خطبة جمعةٍ ، أو غيرها ، فليست خاصَّةً بالنكاح كما يظنّ » .

-ﷺ- ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها ، وكُلَّ مُحدَثةٍ بدْعةٌ ، وكُلَّ بدْعةٍ ضلالةٌ ، وكُلَّ ضلالةٍ في النَّار .

وبعدُ ، فهذه رسالةٌ بعُنوان « تحفةُ الخطيب » ، أقدِّمها للقارئ الكريم راجيًا أنْ يجدَ فيها مَا يَشْفِي العلَّة ، ويَرْوي الغُلَّة كلامًا يلطف كالهواء رِقَّةً ، وكالماء عذوبةً ، يمتزج بالنفوس ، ويشرب بالقلوب ، يأخذ بيد الخطيب إلى الذِّروة من البَيَان ، والقِمَّة من التَّأثير ، والأسلوب الرائع ، وبلوغ المقصد من أقصرِ طريقٍ ، لكنَّه لا يضمن له أنْ يكونَ خطيبًا مصْقَعًا [1] ، ما لَمْ يَرضْ [2] نفسه عليه رياضةً كاملةً ، فَعلْمُ النَّحْوِ لا يضمن لمتعلِّمه أنْ ينطقَ بالفُصْحَى ، ما لم يُمرِّسْ نفسَهُ عليه ، وعِلْمُ الأخلاق لا يضمن لعارفه سلوكًا قويمًا ، ما لم يرضْ نفسه على الأخذ به ، وهكذا كُلُّ العلوم النَّظريَّة التي تظهر ثمرتها في العمل ، فكذلك (لا يحصل على مَلَكَة [3] الخَطَابة إلاَّ مَنْ أحكم وسائلها ، وسلك سبيلها ، وتدرَّب عليها يومًا فيومًا ، وقد راضَ عليها لسانه في النَّوادي العامَّة ، والجموع العظيمة ، وإنْ رَاعَهُ الموقفُ أوَّلاً أَمِنَهُ آخرًا ، فقديمًا قيل : «مَنْ وقف حيث يكره ، وقف حيثُ يُحبُّ ») [4] . وأخيرًا :

خُذْهَا مِنَ القَلْبِ لَوْ أنَّ الدُّجَى [5] صُبِغَتْ ثِيَابُهُ بِسَنَاهَا [6] المُشْرِقِ الغَالي
لصَارَ نُوراً كَأنَّ الشَّمْسَ طَلْعَتُهَا وَالبَدْرَ وَمْضَتُهَا [7] في حُسْنِ إجلالِ

---

(١) **مصْقَعًا** : بلِيغًا ، والجمع مَصَاقِع .
(٢) أصلها « **يريض** » من راضَ الشَّيءَ : إذا مارسه وتدرَّب عليه، فَحُذِفَتْ الياء تخلُّصًا من التقاءِ السَّاكنين.
(٣) **مَلَكَة** : موْهبةٌ ، والجمع مَلَكَاتٌ .
(٤) انظر «فنّ الخطابة» لعلي محفوظ (ص١٩) .
(٥) **الدُّجى** : ظلام اللَّيل، جمع دجْيَة.
(٦) **السَّنا** : الضَّوْء السَّاطع.
(٧) **ومْضتُها** : لمعتها.

تعريف الخطابة

تعريف الخطابة لغة :

قـال ابنُ مَنْظُورٍ : «قـال اللَّيثُ : والخُطْبَـةُ مَـصْـدَرُ الخطيب ، وخَطَبَ الخَاطبُ عَلَى المِنْبَرِ ، واخْتَطَبَ يَخْطُبُ خَطابَةً ، واسم الكلام الخُطْبَةُ .

وقـال الجـوهريُّ : خَطَبْتُ عَلَى المِنْبَـرِ خُطْبَـةً ـ بالضَّمِّ ـ ، وخَطَبْتُ المرأةَ خِطْبَةً ـ بالكسر ـ .

إلاَّ أنَّ الخُطْبَةَ عند العرب : الكلام المنثور المُسجَّع ونحوه التَّهذيب ، ورجلٌ خطيبٌ : حَسَنُ الخُطْبَة ، وجمعُ الخَطِيب خُطَبَاءُ» [١] .

الخطابة اصطلاحاً :

هي مَلَكَةٌ تُعينُ صاحِبَها عَلَى إقناع المخاطبين في أيِّ أمرٍ يدَّعي أنَّه غرضٌ صحيحٌ [٢] .

أو هي علم معرفة طرق أداء الكلام ، ونقل الأفكار إلى عقول السامعين ، وأحاسيسهم بصورةٍ مخصوصةٍ ، وصفاتٍ معيَّنةٍ .[٣]



---

(١) « لسان العرب » (٣٦١/١) .
(٢) « فنُّ الخطابة » (١٤/١٣) .
(٣) « خصائص الخُطْبةِ والخَطيبِ » (ص٢٢) .

طرق تحصيل الخطابة

١ - **فطرةٌ مواتيةٌ ، واستعدادٌ غريزيٌّ** ، ونفسٌ متوثبةٌ ، وبديهيَّةٌ مستيقظةٌ ، وكُلُّ هذا لا يحتاج إلا إلى التَّعليم والممارسة .

٢ - **معرفة الأصول والقوانين التي وضعها الحكماء :**

قال ابنُ سيناء في ذكر قوانين الخطابة : « القوانين على هذا هاديةٌ مُرْشدةٌ، تُساعدُ على تحصيلِ الخطابة بإنارة السَّبيل ، ولا تُكوِّنُ وحْدَها الخطيبَ، بل هي مُهذِّبةٌ للفطْرة ، مُساعدةٌ لها » (١) .

٣ - **قراءة كلام البُلَغَاء :**

إنَّ قراءة كلام البُلغاء تُقدِّم للخطيب إرسالاً من المعاني والأساليب التي تُنمِّي فيه مَلَكَةَ الخطابة.

قال ابن الأثير : « فإنَّه (أي الخطيب) إذا كان مُطَّلعًا على المعاني المَسْبُوقُ إليها ، قد ينقدح له من بينها معنىً غريبٌ ، لم يُسبقْ إليه » (٢) .

ومن اللَّطائف ما ذكره أبو هلالٍ العسكريُّ ـ رحمه الله ـ أنه قال : «حُكيَ لي عن بعض المشايخ أنَّه قال : رأيتُ في بعض قُرى النَّبْط فتىً فصيحَ اللَّهجة ، حسَنَ البيَان ، فسألته عن سبب فصاحته مع لكنَة أَهْلِ جِلْدَته ، فقال: كنتُ أعمدُ في كُلِّ يوم إلى خمسين ورقةً من كتب الجاحظ ، فأرفع بها صوتي في قراءتها ، فما مرَّ بي إلا زمانٌ حتَّى صرْتُ إلى ما ترَى » (٣) .

قلتُ : لو عَمدَ كُلَّ يومٍ إلى عَشْرِ صفحاتٍ من كتاب الله ، ورفع بها صوته ـ لكان من أفصح العرب ! .

---

(١) « الخطَابة » لأبي زهرة (ص٢٤) .
(٢) « المثل السائر » لابن الأثير .
(٣) « الحثُّ على طلب العلم ، والاجتهاد في جمعه » لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص٧٢) .

٤- الارتياض والممارسة والاحتذاء:

لابُدَّ من الارتياض؛ لأن الخطابة مَلَكَةٌ نفسيَّةٌ، لا توجد دفعةً واحدةً، والارتياض: هو التَّدرُّبُ على الخطابة؛ فإنَّ مَلَكَتَهَا تنمو وتقوى بالمرانة والممارسة.

قال خالد بن صفوان: «إنَّما اللِّسانُ عُضْوٌ، إنْ مَرَّنْتَهُ مرن، فهو كاليد تُخَشِّنُها بالممـارسة، وكالبَدَنِ تُقوِّيه برفعِ الحَجَر، والرِّجْلُ إذا عُوِّدَت المَشْيَ مَشَتْ» .

وجاء في كتاب « تاريخ الحضارة » في الحديث عن ديموستين ـ خطيب اليونان ـ : « أنه عندما خطب على المِنْبَر العام ، قُوبِلَ كَلامُهُ بالقَهْقَهَة ؛ إذ كان صوتُهُ ضعيفًا جدّاً ، ونَفَسُهُ قصيراً ، ليست لحركته لَبَاقةٌ ، ولا في لسانه طَلاقةٌ ، فلمَّا اعتزم الخطابة ، أخذ يُقَوِّي رِئَتَهُ وحُنْجُرَتَهُ بالصِّياحِ فوق رءوس الجبال ، وعلى شواطئ البحار ، يرفع صوته مع صَخَبِ الأمواج ، وتغلَّب على عَاهَةِ النُّطْقِ بممارسة الكلام وفي فيه حَصًى ، وتعلَّم أُصُول اللَّباقة ، ورشاقة الحركة (الحذق ولطف الحركة) بالوقوف أمام المرآة وهو يخطب ، حتَّى صار كبير الخُطَبَاء في كُلِّ فُنُونِ الخطابة » .

وجاء في كتاب «البيان والتَّبيين» للجاحظ: «ويُقال: إنهم لم يَرَوْا ـ قَطُّ ـ خطيبًا بلديًّا إلا وهو في أوَّل تكلفةٍ لتلك المقامات ، كان مستثقلاً مستصلفًا أيَّام رياضته كُلِّها إلى أن يتوقَّح ، وتستجيبَ له المعاني، ويتمكَّن من الألفاظ إلا شَبِيبَ بْنَ شَيْبَةَ [١] ؛ فإنَّه ابتدأ بحلاوةٍ ، ورَشَاقةٍ ، وسُهُولَةٍ ، وعُذُوبَةٍ ، فلم يزَلْ يزدادُ منها ، حتى صار في كُلِّ موقفٍ يبلغ بقليل الكلامِ ما لا يَبْلُغُهُ الخُطَبَاءُ المَصَاقِعِ بكثيره » .

ويحدِّثنا التَّاريخُ أنَّ عُمَرَ بْنَ سعيد بْنَ العَاصِ الأُمَويَّ كان لا يتكلَّمُ إلاَّ واعترتْهُ حبسةٌ في منطقه ، فلم يزَلْ يتشدَّقُ ، ويُعالج إخراجَ الكلامِ حتى مال

(١) هو شَبيبُ بْنُ شَيْبَةَ بْنِ عبد الله المِنْقَرِيُّ التَّميميُّ ، خطيب البَصْرَة ، ونشأ بها ، وامتازَ بنبالة نفسٍ ، وسخاء كفٍّ ، وحسنِ تواضعٍ، ونزاهةِ لسانٍ ، كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة ، القريبة من حدِّ الإعجاز .

شدْقُهُ ؛ ولذا لُقِّبَ بالأشْدق ، وفيه يقولُ الشَّاعرُ :

تَشَدَّقَ حتَّى مـال بالقَولِ شِدْقُهُ[١] وكُلُّ خطيبٍ ـ لا أَبَا لَكَ[٢] ـ أَشْدَقُ[٣]

وليست الرياضة فقط لطالب الخطابة؛ بل هي لازمة لمن شَدَا فيها[٤].

قال خطيب المعتزلة الجاحظ ـ كما يصفه بذلك ابنُ تيميَّة ـ: «وأنا أُوصيك ألاَّ تدَعْ التماسَ البيَان والتَّبْيين، إنْ ظننتَ أنَّ لكَ فيهما طبيعةً، وأنَّهما يُناسبانك بَعْضَ المناسبات، ويُشاكلانك بَعْضَ المشاكَلَة، ولا تُهْمِلْ طبيعتَكَ، فيستولِيَ الإهمالُ على قُوَّة القَريحَة، ويستبدَّ بها سُوءُ العَادَة، وإنْ كنت ذا بيانٍ، وأحسَسْتَ من نفسكَ بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوَّة المُنَّة[٥] يَوْمَ الحفل ـ فلا تُقصِّرْ في التماسِ أعلاها في البيانِ سُورةً، وأرفعها في البيانِ منزلةً».

وقد يستطيع الخطيبُ أنْ يحصلَ على مَلَكَة الخطابة بسهولةٍ ويُسْرٍ، فيعمد إلى كتابة الخُطَب التي تُناسبَ المقام، والمكانَ، والزَّمانَ، ويذهبَ يُلقيها في البادية منَ الورقة أو منَ دونِ ورقة مع التحضير والإعداد المُسْبَق، ولتكنْ الباديةُ غَيْرَ البادية التي هو فيها مُقيمٌ وله فيها أَهْلٌ؛ حتَّى لا يَجِدَ التَّثْبيطَ من الحُسَّاد والأقْران[٦]، فما تَذهب الأيَّامُ إلاَّ وقد حصلَ على مَلَكَة الخطابة، فيكون قد استفاد وأفادَ غيرَهُ، فإذا طُلِبَ منْهُ أن يخطبَ بَعْدَ ذلك في المدينة التي هو فيها مُقيمٌ، صفقتْ له أنفسُ النَّاسِ واكتمل سرورُهُمْ .

غُلامٌ إذا ما شرَّفَ الجمعَ صَفَّقت لَهُ أَنْفُسُ الحضَرِ ، واكتملَ البَشَرُ[٧]

لَـهُ منْطِـقٌ لَـوْ أنَّ للـسِّحَرِ بَعْضَـه مشَى بيْنَنَا مِن حُسْنِ طلعتهِ السِّحَرُ!

---

(١) الشِّدْق : زاوية الفمِ ممَّا تحتَ الخدِّ، جمعهُ أشْداق.
(٢) أسلوبٌ ليس القصدُ منه الدُّعاءَ عليه بفقد الأب ، بل هو أسلوبٌ أُريدَ به الحَثُّ.
(٣) الأشْدق : هو واسع الشِّدْقين ، والفم الفصيح ، وسعةُ الفمِ عند العَرب من سِماتِ الفصاحةِ والبيان.
(٤) شدَا فيها : أخذَ طرفًا منها.
(٥) المُنَّة : النِّعْمَة ، والجمع مِنَن.
(٦) الأقران : جمع قِرْنٍ ، وهو النَّظير في العلمِ ، والشَّجاعة، وغيرهما.
(٧) البِشْر : الفرح والبَشَاشة .

تقسيم الخطابة

يقسم المحدثون الخطابةَ إلى خمسةِ أقسامٍ :

١- الخُطْبَة الدِّينيَّة .

٢- الخُطْبَة السِّياسيَّة .

٣- الخُطْبَة القَضَائيَّة .

٤- الخُطْبَة العَسْكَرِيَّة .

٥- الخُطْبَة الاجتماعيَّة .

والذي يبدو أنَّ التَّقسيم هذا ليس على إطْلاقه ؛ فإنَّ السِّياسة والاجتماع والثقافة من الدين ، ولذلك كانتْ خُطَبُ النَّبيِّ - ﷺ - بصفته إمامًا للنَّاس لا تختلفُ عن خُطَبه بصفته مُبَلِّغًا عن الله ، وكذلك خُطَبُ الخُلَفَاء الرَّاشدين السياسيَّة لا تختلف كثيرًا عن خُطَب المناسبات الدِّينيَّة ، والخطيبُ النَّاجح مَنْ يُوَازِنُ بين الأمورِ، ويجعلُ لكُلِّ مقامٍ مقالاً ، ولكُلِّ مناسبةٍ حالاً .





أصول الخطابة

١ - الإخلاص .
٢ - العلم .
٣ - العمل بالعلم .
٤ - القرآن الكريم .
٥ - السنّة النبوية .
٦ - اعتماد فهم السلف .
٧ - اختيار الموضوع .
٨ - التثبُّت في النقل .
٩ - مخاطبة الناس على قدْر عقولهم .
١٠ - طريقة الإنكار على الوُلاةِ .
١١- تقصيرُ الخُطبة .
١٢- علوم مرتبطة بالخطابة :
أ - المنطق .
ب - علم النفس .
جـ - علم الاجتماع .

الإخْلاصُ

الإخْلاصُ : هو إفرادُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالقصد في الطَّاعات ، وهو أشدُّ على النَّفْسِ ؛ لأنَّهُ يكسرُ حُظُوظَهَا ، ويَصْرِفُهَا عَنْ حُبِّ الظُّهورِ ، والمَدْح ، والرِّيَاسَة ، وهي تأبى ذلك ؛ لهذا قيل : « الإخلاصُ عزيزٌ » . وقيل : « النيَّات تجارةُ العلماء » . والمعنى : أنَّ العلماء هم الذين يَعْلَمون كيف يُعاملون ربَّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ ويربحون عليه أعظمَ الرِّبحِ ، أمَّا في الطاعات فينوي في الطاعة الواحدة نياتٍ كثيرةً ، كمن يقصد الذهاب إلى المسجد ، فينوي أنه زائرٌ لبيت الله، وقاصدٌ ـ كذلك ـ صلاةَ الجماعة التي تعدل صلاة الفَذِّ بسَبْعٍ وعشْرين ضِعْفًا ، ويَنْوي ـ مع ذلك ـ سماعَ الذِّكْر من العلماء ، وإفادة العلم بالأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ ، سواءٌ كان ذلك عن طريقِ الخطابة ، إن كان خطيبًا ، وعن طريق الدعوة الفرديَّة أو الجماعيَّة ، إذ المسجدُ لا يخلو من جاهلٍ يُسيءُ في صلاته ، أو طالبٍ مُتَعَطِّشٍ لسماعِ الذِّكر من أهله ، وينوي ـ مع ذلك ـ أن يستفيدَ أخًا في الله ؛ فإنَّ في ذلك غنيمةً ، ونصرةً للدَّار الآخرة ، وينوي ـ كذلك ـ تَرْكَ الذُّنوبِ حياءً من الله ـ تبارك وتعالى ـ ، فما من طاعةٍ إلاَّ وتحتمل نيَّاتٍ كثيرةً[1] .

وقالَ صاحبُ الإحياء : « فقد ظهر ـ بالأدلَّة والعيان ـ أنه لا وصولَ إلى السعادة إلاَّ بالعلمِ والعبادة ، فالعلمُ بغير نيَّة عناء ، والنِّيَّة بغير إخلاصٍ رِيَاء ، وهو للنِّفاقِ كفاء ، ومع العصْيَان سَوَاء ، والإخلاصُ من غير صدقٍ وتحقيقٍ هباء ، وقد قَال الله ـ تعالى ـ فـي كُلِّ عملٍ كان بإرادة غير الله مشوبًا مغمورًا : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

(١) انظر « البحر الرائق » جمع وترتيب أحمد فريد (ص١٩) .

أخي ـ بارك الله لي ولك في العلم ـ ، إنَّ الكلامَ إذا كان مُخْلَصًا ، كان أسرعَ نفاذًا في القلوب .

يُرْوَى أنَّ الحسَنَ البصْريَّ ـ رحمه الله ـ سمع رجلاً يعظُ النَّاسَ ، فلم تقعْ موعظتُه في قلبه بمكان ، فقال : « يا هذا ، إنَّ بقلبك لشرّاً ، أو بقلْبي » .

ثوبُ الرِّياء يَشفُّ عَمَّا تَحْتَهُ … فَإِذا الْتَحَفْتَ به كَأَنَّكَ عارِ

وما أَجْمَلَ ما قالَهُ الشاعرُ محمد إقبال - رحمه الله - :

أَرَى التَّفكيرَ أَدْرَكَهُ خُمُولٌ … وَلَمْ تَبْقَ العَزَائِمُ في اشْتِعَالِ

وَأَصْبَحَ وَعْظُكُمْ مِنْ غَيْرِ نُورٍ … وَلاَ سِحْرٍ يُطالِعُ في المَقَالِ

وكان عامرُ بْنُ قَيسٍ يقول : « الكلمةُ إذا خرجتْ من القلب ، وَقَعَتْ في القلب ، وإذا خَرَجَتْ من اللِّسان ، لم تجاوزْ الآذان » .

ولا شكَّ أنَّ الكلامَ الخالي من الإخلاص كالرَّعْد بلا مَطَرٍ، فهو ـ وإنْ كان مُفْعَمًا[1] بالحقائقِ، متينَ الأسلوبِ ـ مُحَيِّرٌ للألبابِ، مُبْعِدٌ لها عن الهِدَاية.

قال الإمامُ أبو طاهرٍ السِّلفيُّ :

واعْلَمْ بأَنَّ الأَجْرَ لَيْسَ بحاصِلٍ … إلاَّ إذا كَانَتْ لَهُ صِفَتَان

لابُدَّ مِنْ إخْلاصِه وَنَقَائه … وَخُلُوِّه مِنْ سَائرِ الأَدْرانِ[2]

وَكَذَا مُتابعَةُ الرَّسُولِ ؛ فَحُكْمُهَا … نَصٌّ بِحُكْمِ نَبِيِّنَا العَدْنانِ



(١) **مُفْعَمًا** : مليئًا.
(٢) **الأَدْرانُ** : جمعُ دَرَنٍ ، وهو الوَسَخُ .

العِلْمُ

لابُدَّ من التأهيل العلميِّ للخطيب ، والتأهيل العلميُّ يقتضي أمرين متلازمين :

أوَّلهما ـ العلمُ بشرع الله المطهَّر كتابًا وسُنَّةً ، ومعرفة ما يجب على المُكلَّف من أمرِ دينه في عباداته ومعاملاته ، والعلم بالله ، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدارُ ذلك على التفسير، والحديث، والفقه .(١)

ثانيهما ـ العلمُ بمنهج السَّلف قولاً وعَمَلاً ، وفَهْمًا واعتقادًا.

قال الأوزاعيُّ ـ رحمه الله ـ لبَقيَّةَ بن الوليد : « يا بَقيَّةُ ، العلمُ ما جاء عن أصحابِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، وما لم يَجِئْ عن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فليس بعلمٍ » (٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ : « فالصَّحابة كانوا أعلمَ الناس بأصول الدين ؛ فإنهم تلقَّوه عن أعلم الخَلْق بالله على الإطلاقِ ، وكانوا إذا استشكلوا شيئًا سألوه عنه ، وكان يُجيبُهم بما يُزيل الإشكالَ ، ويبيِّنُ الصَّوابَ ، فهم العارفون بأصول الدين حقّاً ، لا أهل البدع والأهواء من المتكلِّمين ، ومَنْ سلك سبيلَهم »(٣) .

بِنُورِ العِلْمِ يُكْشَفُ كُلُّ رَيْبٍ ... ويبصرُ وَجْهَ مطلبه المُريدُ
فَأَهْلُ العِلْمِ فِي رَحْبٍ وقُرْبٍ ... لَهُمْ مِمَّا اشتَهَوْا ـ أَبَدًا ـ مَزِيدُ
إذا عَمِلُوا بمَا علِمُوا ، فكلٌّ ... لَهُ مِمَّا ابْتَغَاهُ مَا يريدُ
فَإنْ سَكَتُوا فَفِكْرٌ في مَعَادٍ ... وإنْ نطقُوا فَقَوْلُهُمُ سَدِيدُ(٤)

(١) « فتح الباري » (١٤١/١) .
(٢) « جامع البيان » (٢٩/٢) .
(٣) « الفرقان » (ص٦) .
(٤) « جامع بيان العلم » (٤٩/١) .

ولابُدَّ للخطيب أنْ تتوافر فيه الصفات الآتية :

قال القاسميُّ ـ رحمه الله ـ : « يُشْترطُ في الخطيبِ أن يكونَ :

أوَّلاً - (عالمًا بالعقائدِ الصحيحةِ) :

حتى لا يزيغَ ، ويُؤْذيَ الناس بسوء عقيدتهِ في دركِ ظلماتِ الضلالِ ، فتسوء العُقْبى .

ثانيًا - (عالمًا بالفروع):

كي يُصحِّحَ العباداتِ بما علمه من علم الفقه، ولأنه عرضةٌ أن يسأله المأمومون في الأحكام ، فَيُجيبهم عن حقيقة، ويَهْديهم بنور الشَّريعة إلى صراطٍ مستقيمٍ ، لا يهرف ، ويخبط خَبْطَ عَشْوَاءَ [1] في أمورِ الدِّين بجهالاتِهِ كأغلب الخطباء والأئمة اليوم ، رُحماك اللَّهُمَّ رُحماك ! .

ثالثًا - (وعالمًا باللُّغة العربية) :

وبالأخصِّ علمِ الإنشاء ؛ كي يقتدرَ على تأليف كلامٍ بليغٍ ، وتنسيق دُررٍ مُضيئة ، يُشرق نور أسرارها على أفئدة السامعين، فيسحرهم ببديعِ لَفْظِهِ ، ويَخْتَلبُ ألبابَهم بجواهر آياتِ وَعْظِه » .

رابعًا - (العلم بصحيح وضعيف السنَّةِ) :

قال الألبانيُّ ـ رحمه الله ـ : « لقد فات المصنفُ ـ رحمه اللهُ تعالى ـ أن يضمَّ إلى الشروط المذكورة شرطًا مُهمّاً في عامَّة البلدان ـ مع الأسف ـ ألا وهو أن يكون عالمًا بالسُّنَّة، عارفًا بما صحَّ فيها، وما لم يَصِحّ؛ حتَّى لا يكونَ سببًا لإذاعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين الناس، فَيَضِلَّ ويَضِلُّوا به، وما أكثرَ الأحاديثَ الواهيةَ التي ينشرونها بمناسبةِ بعض المواسم المُبْتَدَعَة وغيرها ! » [2] .

---

(١) **الخَبْط** : الضَّرْب باليد ، **والعَشْواءُ** : النَّاقة التي لا تُبصر ليلاً.

(٢) « إصلاح الساجد للقاسميّ » بتحقيق الألبانيّ (ص٦٩) .

قال سابق البربريُّ :

« العلْمُ فيْه حيَاةٌ للقلوب ، كَمَا تَحْيَا البلادُ ، إذا مَا مَسَّها المَطَرُ
والعلْمُ يَجْلو العَمَى(1) عَنْ قَلْبِ صاحبه كَمَا يُجَلِّي سَوَادَ الظُّلْمَةِ القَمَرُ!»(2)

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ :

سَهَرِي لتَنْقيح العُلُوم أَلَذُّ لي مِنْ وَصْلِ غانيةٍ(3) وطيب عِنَاق(4)
ودُمُوعُ عَيْني فَوْقَ قِرْطَاسي(5) لها هَمْسٌ كَهَمْسِ الحُبِّ في الأَعْمَاقِ

فعليك – أخي الحبيب – ألاَّ تدعَ طلبَ العلمِ ، حتى وإن أحسست أنك قد تمكَّنت من كثيرٍ من العلوم الشَّرعيَّة ، فلا تهملِ التَّوسُّعَ في ثقافتكَ ، وسؤال أهل العلم فيما قد يُشكل عليك ويتعسَّر عليك فَهْمُهُ ؛ بل من الأَحسن والأجمل أن ترحل إليهم تكريماً للعلم .

عَلَيْكَ بأَهْلِ العلْمِ فَارْغَبْ إليْهِمُ يُفيدُوكَ علْماً ؛ كَي تكونَ عَليما
ويَحْسَبُ كُلُّ النَّاس أنَّك مِنْهُمْ إذَا كُنْتَ في أَهْلِ الرَّشاد مُقيما
فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارِنِ مُقْتَدٍ وقَد قال هَذَا القَائلُونَ قَديماً(6)

---

(1) **يَجْلو العمى** : يُذْهبُهُ .
(2) « جامع بيان العلم » (1/50) .
(3) **غانية** : هي التي استغنَتْ بحسنها عن الزِّينةِ والحُلي ، والجمع غَوَان .
(4) جاء في « اللسان » (4/3133) : « وعانقه معانقةً وعناقاً : التزمه فأدنى عُنُقَهُ منْ عُنُقِه » .
(5) **القرْطاس** : الكتابُ ، أو السِّجلُ ، أو الدَّفتر ، وجمعه قَرَاطيس .
(6) « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البرّ (1/58) .

العَمَلُ بالعِلْمِ

على الخطيبِ أن يجتهدَ في إصلاحِ نفسِه قبلَ إصلاحِ غيرِه ؛ فالخطابةُ علاجٌ للقلوبِ ، فمن الأجملِ أن يُعالجَ الناسَ طبيبٌ معافى .

وقد ذمَّ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ مَنْ يأمر بالمعروف ، ولا يعمل به ، فقال عزَّ وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا[١] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصَّف : ٢ ، ٣] .

وقـال أيـضاً : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٤]

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ : « اعلم ـ وفَّقك اللهُ تعالى ـ أن التَّوبيخَ في الآية بسبب ترك فعل البرِّ ، لا بسبب الأمر بالبرِّ ؛ ولهذا ذمَّ اللهُ ـ تعالى ـ في كتابه قومًا ، كانوا يأمرون بأعمال البرِّ ، ولا يعملون بها ، وبَّخهم به توبيخًا يُتلى على طول الدَّهْرِ إلى يومِ القيامة، فقال : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾» [٢]

وقال ابنُ كثيرٍ ـ رحمه الله ـ : « والغرض أن الله ـ تعالى ـ ذمَّهم على هذا الصنيع ، ونبَّههم على خطئهم في حقِّ أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ثُمَّ لا يفعلونه ، وليس المراد ذمَّهم على أمرهم بالبرِّ مع تركهم له ؛ فإن الأمر بالمعروف معروفٌ ، وهو واجبٌ على العالم ، لكنَّ الواجب والأوْلى بالعالم أنْ يفعلَه مع مَنْ أمرهم به ، ولا يتخلَّف عنهم ، كما قال شُعَيْبٌ ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

---

(١) **مقتاً** : أي كرْهًا وسَخطًا وغضبًا .
(٢) «تفسير القرطبي» (٣١٢/١) .

إلى أن قال : « والصحيحُ أنَّ العالمَ يأمرُ بالمعروفِ ، وإن لمْ يفعلْهُ ، وينهى عن المنكر ، وإن ارتكبه » .

قال مالك عن ربيعة : سَمعتُ سَعيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يقول : « لو كان المرءُ لا يأمرُ بالمعروفِ ، ولا ينهى عن المنكرِ ؛ حتى لا يكونَ فيه شيء ـ ما أمر أحدٌ بمعروفٍ ولا نهى عن منكرٍ » . قال مالك : « وصَدَقَ ، مَنْ ذا الذي ليس فيه شيءٌ ؟! » .

قُلتُ (أي ابن كثير) : « لكنه ـ والحالةُ هذه ـ مذمومٌ على تَرْكِ الطَّاعة ، وفَعْلِ المعصية لعلمه بها ، أو مخالفته على بصيرةٍ ، فإنه ليس مَنْ يعلم كَمَنْ لا يعلم ؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك » [1] .

فعن أسامةَ بن زيدٍ ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : «**يُجاءُ بالرَّجُلِ [2] يومَ القيامة ، فَيُلقَى في النَّار ، فَتَنْدَلِقُ [3] أَقْتَابُهُ [4] ، فيدُورُ كما يدورُ الحمارُ برَحَاهُ [5] ، فيجتمعُ أهلُ النَّارِ عَلَيْه ، فيقولون : يا فُلانُ ، ما شأنُك ؟! ، أَلستَ كُنتَ تأمُرُ بالمعروفِ ، وتنهى عَنِ المُنْكرِ ؟!. فيقول** : كنت آمرُكُمْ بالمعروفِ ولا آتيه ، وأَنْهَاكُم عَنِ الشرِّ وآتيه ! » [6] .

وقال ـ أيضاً ـ : وإنِّي سمعته (يعني رسولَ الله ـ ﷺ ـ) يقول :

« **مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بأقوامٍ تُقْرَضُ شِفاهُهُمْ بمقاريضَ من نارٍ، قُلت** :

---

(١) تفسير ابنِ كثيرٍ (١/٨٨) .
(٢) أي الذي يخالفُ علمهُ عملَهُ .
(٣) **الاندلاق** : خروج الشيء من مكانه بسرعة .
(٤) **أقتابه** : جمع قتبٍ – بكسر القاف – ، وهي الأمعاء (أي المَصَارين) .
(٥) أي الطاحون ؛ فانظر – يا عبد الله – إلى حال مَنْ يقول ما لا يفعل ، كيف تنْصَبُّ مَصَارِينُهُ من جوفه ، وتخرج من دبرِهِ ، ويدور بها دوران الحمارِ بالطَّاحونِ ، والنَّاس تنظر إليه ؟! نسأل الله الثبات والستر والعاقية .
(٦) أخرجه البخاريُّ في بَدْءِ الخلق (٣٢٦٧) ، وفي الفتن (٧٠٩٨) ، ومسلمٌ في الزُّهد والرَّقائق (٢٩٨٩) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧، ٢٠٩) .

مَنْ هؤلاء يا جبْريلُ؟!، قال خُطَبَاءُ أُمَّتكَ الذين يقولون ما لا يفعلون »[١].

وعن جُنْدُب بْنِ عبد الله الأَزْديِّ ـ رضي الله عنه ـ قال : قالَ رسولُ الله ﷺ : «مَثَلُ العالم[٢] الَّذي يُعَلِّمُ الناسَ الخيرَ ، وينْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاج ، يُضيءُ للنَّاسِ ، ويَحْرِقُ نَفْسَهُ ... »[٣] .

إذا العلْمُ لم تَعْمَلْ به كَانَ حُجَّةً عَلَيْكَ ، ولم تُعْذَرْ بما أَنْتَ جَاهلُهْ
فَإنْ كُنْتَ قَدْ أُوتِيْتَ علْمًا ، فإنَّما يُصَدِّقُ قَوْلَ المرْءِ مَا هُوَ فَاعلُهْ

فعليك ـ أخي الخطيب ـ أن تكون مرآةً لدعوتك ، وكتابًا مفتوحًا يجد الناس فيه تطابقًا تمام التَّطابق لكلامك ؛ فإنهم إذا قرءوا صحيفةَ أقوالك ، ولم يجدوها مثْلَ أعمالك ـ خاضوا فيها، واستهزءوا بكلمتك، فإنَّ العمل أبقى أثرًا في النفوس من القول؛ ولهذا قال أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ : « نحْنُ إلى إمامٍ فعَّالٍ أَحْوَجُ منَّا إلى إمامٍ قوَّالٍ » .

ومن العجب أنَّ الخطيبَ إذا خطبَ في قريةٍ أهلُها لا يعرفونه، يجد الاستجابة والتأثر بعكس القرية التي وقف أهلُها على حقيقة أمره ، ومدى موافقة قوله لعمله .

وما أحسن قول الشاعر :

وَصَفْتَ التُّقَى حتَّى كأنَّكَ ذُو تُقَى وَرِيحُ الخَطَايا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ!

وقَال آخرُ :

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يأْمُرُ النَّاسَ بالتُّقَى طَبِيبٌ يُداوي ، والطَّبِيبُ مَرِيضُ

(١) متَّفقٌ عليه .
(٢) **مَثَلُ العالم** : أي صفتُه.
(٣) رواه الضِياء في المختارة ، والطَّبَرَانيُّ في الكبير ، وقال الألبانيُّ – يرحمه الله !– : « أخرجه الطبَرانيُّ في المعْجم من طريقين ، يقوِّي أحدهما الآخر » . انظر الاقتضاء للألبانيّ (ص٧٠ – ٧١) ، وصحّحه في صحيح الجامع (٥٨٣١) .

وقال أبو الأسْوَد الدُّؤَليُّ :

يَأَيُّهَا الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هلاَّ لنفسك كان ذا التَّعْليمُ ؟!
تَصِفُ الدَّواءَ لذي السَّقام وذي العَنَا ... كَيْمَا يَصِحُّ به وأنْتَ سَقِيْمُ
ونراكَ تُصْلِحُ بالرَّشاد عُقُولَنَا ... أَبَدًا ، وأَنْتَ منَ الرَّشَاد عديمُ
ابْدَأْ بنفسكَ ، فانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فإذا انْتَهَتْ عَنْهُ ، فأَنْتَ حكيمُ
وهُناكَ يُقْبَلُ ما تقُولُ ، ويُشْتَفي ... بالقَولِ منْكَ ، ويَنْفَعُ التَّعليمُ
لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ - إذا فعلْتَ - عظِيْمُ !



القرآنُ الكريمُ

لا شيءَ يُخاطب العقلَ والوجْدانَ أعظمُ من كلامِ الله ، ومتى اعتمدَ الخطيبُ على القرآنِ الكريمِ ، فقد أخذَ بمناحي التأثير ، وبلغ في نفس السامع ما أراد .

ولا تتوافر في أيِّ خُطْبَة جودةُ الإنتاجِ ، وجمالُ اللّفظِ ، ومخاطبةُ الإحساسِ ، وإثارةُ الرَّغبة ، وطُرُقُ الإقناعِ ـ حتى تشتملَ على شيْءٍ من القرآن الكريم ؛ فالقرآن الكريم كما وصفه الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزُّمَر : ٢٣] .

وقال ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وقد كان السَّلف يُسمُّون الخُطْبَةَ التي لم تُوَشَّحْ بالقرآنِ الكريمِ ، وتُزيَّنْ بالصَّلاة على النَّبيِّ ـ ﷺ ـ بالشَّوْهَاء ، كما قال الجاحظ .

قال عِمْرانُ بن حطان: « خطبتُ عند زيادٍ خُطْبَةً، ظننتُ أني لم أُقصِّرْ فيها عن غايةٍ ، ولم أَدَعْ لطاعنٍ علَّةً ، فمررتُ ببعض المجالسِ ، فسمعتُ شيخًا يقول : هذا الفتى أخطبُ العَرَبِ ، لو كان في خُطْبَتِه شيءٌ من القرآن! » (١) .

وكان ـ ﷺ ـ يخطب من القرآن أحيانًا ، فعن أمِّ هشامٍ بِنْتِ حارثةَ قالت :

(١) « البيان والتبيين » للجاحظ (٢/٥) .

« ما أخذتُ ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسولِ الله ـ ﷺ ـ يقرؤها كُلَّ يوم جُمُعَةٍ علَى المِنْبَرِ ، إذا خطبَ الناسَ »[1] .

أتَى علَى سِفْرِ[2] التَّوراة فَانْهَزَمَتْ فَلَمْ يُفِدْهَا زَمَانُ السَّبْقِ والقِدَمِ
ولَمْ تَقُمْ منه للإنْجِيلِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهُ الطَّيْفُ، زَارَ الجَفْنَ في الحُلُمِ!

فالحكمة في كتاب الله – كما قال البقلانيُّ – مجلوّة عليك في منظرٍ بهيجٍ ، ومعرضٍ شيّقٍ ، ونَظْمٍ أنيقٍ غير مُتعاصٍ على الأسماعِ ، ولا مُلْتوٍ على الأفهام ، ولا مستكرهٍ في اللفظ ، يمرُّ كما يمرُّ السَّهمُ ، ويضيء كما يضيء الفجرُ ، ويزخر كما يزخر البحرُ ، طموحِ العباب ، جموح على الطارق المنتاب، كالرُّوح في البدن ، والنور المسيطر في الأُفُق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر، وفي ذلك يقول الله – تعالى – :﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٢] .

سَمِعْتُكَ – يا قُرْآنُ – واللَّيْلُ وَاجِمٌ[3] سَرَيْتَ[4] تَهُزُّ الكَوْنَ سُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى!
فَتَحْنَا بِكَ الدُّنيا فَأَشْرَقَ نورُهَا فَسَلْ دَوْلَةَ الأَخْبارِ (يَرْمُوكَ) أَوْ (بَدْرا)



(١) رواه مسلم في الجُمُعَة (٨٧٣) ، وأبو داود في الصَّلاة (١١٠٠) ، والنَّسائيُّ في الجُمُعة (١٤١٢) .
(٢) سِفْرٌ : كتاب ، والجمع أَسْفَارٌ .
(٣) وَاجِم : هادئ صامت .
(٤) سَرَيْتَ : من السُّرَى، وهو السَّير ليلاً .

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

كلام النَّبيِّ - ﷺ - هو الكلام الذي يلي منزلةَ القرآن الكريم ، وقد بلغ من البلاغة الذِّروةَ ، ووصل من العظمة والجلال إلى القمَّة ، ولو أنَّ كلامه عُرِضَ عليكَ منسوبًا لغيره ، لأنكرت النِّسبة ؛ لأنه تُحيط به هالةٌ روحيَّةٌ ، تحسُّ منها بشُعَاع النُّبُوَّة ، قال اللهُ - سبحانه - : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النَّجم : ٣،٤] .

وقال - تبارك وتعالى - : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النَّحْل : ٤٤] .

صلَّى عليك اللهُ - يا عَلَمَ الهُدَى - واسْتَبْشَرَتْ بقُدُومِكَ الأيَّامُ
هَتَفَتْ لَكَ الأرْوَاحُ مِنْ أَشْوَاقِهَا وازَّيَّنَتْ بِحَدِيْثِكَ الأَقْلامُ

وقد بلغتْ عنايةُ السَّلف بروايةِ أحاديثِ رسول الله - ﷺ - ، والاستشهاد بها في خُطَبِهِم - مبْلغًا عظيمًا ، فإنَّ الحديثَ إذا صَحَّ عندهم ، كان فيه فصلُ الخطاب ، واعتقدوا أنَّ الخطيبَ بروايته يُصيب محزَّ الصواب .

إنيِّ إذا احْتَوَشَتْني أَلْفُ مَحْبَرَةٍ يَكْتُبْنَ حَدَّثَني طورًا وأَخْبَرَني
نَادَتْ بِحَضْرَتيَ الأَقْلامُ مُعْلِنَةً تلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ

وقد قال الجاحظُ في وصفه كلامَهُ - ﷺ - : « هو الكلام الذي قلَّ عددُ حروفه ، وكَثُرَ عددُ معانيه ، وجلَّ عن الصنعة ، ونُزِّهَ عن التَّكلُّف ، وكان كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] ، فكيف وقد عابَ التَّشديقَ (١) ، وجانبَ أصحابَ التَّقعير (٢) ، استعمل المبسوطَ في موضع

(١) **التَّشديق** : التطاول على الناس بالكلام ، بأنْ يتكلَّمَ بملْءِ فيْه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه .
(٢) **التَّقعير** : يُقال تقَعَّرَ فلانٌ في كلامه : إذا تكلَّم بأقصى فَمِه .

البَسْط، والمقصورَ في موضعِ القَصْر، وهَجَرَ الغريبَ الوحشيَّ، ورَغِبَ عن الهجينِ السُّوقيِّ [١]، فلم ينطق إلاَّ عن ميراثِ حكمة، ولم يتكلَّمْ إلا عن كلامٍ حُفَّ بالعصمة، وشُيِّدَ بالتَّأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى اللهُ المحبَّةَ عليه، وغشَّاه بالقَبُول، وجمع لهُ بين المَهَابَة والحَلاوَة، وبين حُسْنِ الإفهامِ وقلَّة عدد الكلام، وهو ـ مع استغنائه عن إعادته، وقلَّة حاجة السامع إلى معاودته ـ لم تَسقطْ له كلمةٌ، ولا زَلَّتْ له قدمٌ، ولا بارتْ له حُجَّةٌ، ولم يَقُمْ له خَصْمٌ، ولا أَفْحَمَهُ خطيبٌ، بل يبذُّ الخُطَبَ الطِّوالَ بالكلامِ القصير، ولا يلتمس إسكاتَ الخَصْمِ إلا بما يعرفُهُ الخَصْمُ، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق، ولا يطلبُ الفلجَ [٢] إلا بالحقِّ، ولا يستعينُ بالخلاَبَة [٣]، ولا يستعمل المؤاربةَ، ولا يَهْمِزُ ولا يَلْمِزُ [٤]، ولا يُبطئُ ولا يَعْجَلُ، ولا يُسْهِبُ ولا يحصرُ، ثم لم يسمعْ الناسُ بكلامٍ قطُّ أعمَّ نفْعًا، ولا أصْدَقَ لَفْظًا، ولا أعدلَ وزنًا، ولا أجملَ مَذْهبًا، ولا أكرمَ مطلبًا، ولا أحسنَ موقعًا، ولا أَسْهَلَ مَخْرَجًا، ولا أفصحَ عن معناه، ولا أَبْيَنَ عن فَحْواه من كلامه ﷺ، ولعلَّ بعضَ مَنْ لم يتَّسعْ في العلمِ، ولم يعرفْ مقاديرَ الكلامِ يظنُّ أنَّا تكلَّفنا له من الامتداحِ والتشريف، ومن التَّزيين والتَّجويد ـ ما ليس عنده، ولا يبلغُ قَدْرَهُ، كلاَّ والذي حرَّم التزيُّدَ على العلماء، وقبَّح التَّكلُّفَ عند الحُكَمَاء، وبَهْرَجَ [٥] الكذَّابين عند الفُقَهَاء – لا يظنُّ هذا إلا مَنْ ضلَّ سَعْيُهُ» اهـ .

مَنْ زارَ بابَكَ، لَمْ تَبْـرَحْ جَـوارِحُـهُ تَرْوي أَحَـادِيثَ مَـا أَوْلَيْتَ مِنْ مِنَنِ [٦]
فَـالعَيْـنُ عَنْ قُـرَّةٍ، والرُّوحُ عَنْ صِلَةٍ والقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ، والسَّمعُ عَنْ حَسنِ

---

(١) السُّوقيّ : العاميّ المُبْتَذَل.
(٢) الفلج : الظَّفَر والفوز .
(٣) الخلاَبة : الخديعة في القول ، أي الكلام الخلاَّب الذى يعرف صاحبُهُ كيف يُعْجِبُ السَّامعَ به .
(٤) لا يَهمز ولا يلمز : لا يغتاب ولا يعيب .
(٥) بَهْرج : أهمل .
(٦) مِنن : جمع مِنَّة ، وهي النِّعمة .

اعتمادُ فَهْمُ السَّلَفِ

على الخطيب أن يعرضَ الكتابَ والسُّنَّةَ بفَهْمِ السَّلَفِ ، والسَّلَفُ هم الصحابة، والتَّابعون ، وتابعوهم؛ لحديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : سُئِلَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أيُّ الناسِ خيرٌ ؟» . قال : « **قَرْني ، ثمَّ الذين يَلُونَهُم ، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ ، ثمَّ يَجيءُ قومٌ تَسْبقُ شَهَادةُ أحَدهم يَمينَهُ ، ويَمينهُ شَهَادَتَهُ** » [(١)] .

والسَّلَفيَّة اصطلاحٌ خاصٌ ، يُطلقُ على مَنْ تمسَّك بالكتابِ والسُّنَّةِ ، واقتدى بالسَّلفِ الصَّالحِ في فَهْمِ الإسلامِ وتطبيقِه .

قال الأوزاعيُّ ـ رحمهُ الله ـ : « اصبرْ نفسَك على السُّنَّة ، وَقِفْ حيثُ وقفَ القومُ ، وقُلْ بما قالوا ، وكُفَّ عمَّا كَفُّوا عنه ، واسلكْ سبيلَ سَلَفِك الصَّالِحِ ؛ فإنَّه يسعُك ما وسعَهم » [(٢)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ – يرحمه الله – : « إنَّ اتِّباعَ سبيلِهم أَوْلَى مِنَ اتِّباعِ سبيلِ مَنْ خالفَ سبيلَهم » [(٣)] .

وقال الإمامِ الحافظ بن عبد الهادي – رحمه الله – : « ولا يجوز إحداثُ تأويلٍ في آيةٍ أو سُنَّةٍ لم يكنْ على عَهْدِ السَّلَفِ ، ولا عرفوه ، ولا بيَّنوه للأُمَّةِ ؛

---

(١) رواه البخاريُّ في الفضائل (٣٦٥١) ، ومسلمٌ في الفضائل (٢٥٣٣) ، والتِّرمذيُّ في المناقب (٢٨٥٩) ، وابنُ ماجهْ في الشَّهادات (٢٣٦٢) ، وأحمد في مسنده ، ورواه عن عِمْرانَ بن حصَيْن أبو داود في السُّنَّة (٤٦٥٧) .

(٢) أخرجه اللالَكائيُّ في « السنة » (١٥٤/١) ، والبيهقيُّ في « المدخل » (٢٣٣) ، والآجريُّ في «الشريعة» (ص٥٨) بسند صحيح .

(٣) « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص٤٣٨) .

فإنَّ هذا يتضمَّن أنَّهم جهلوا الحقَّ في هذا ، وضلُّوا عنه ، واهتدى إليه هذا المعترضُ المستأخرُ » (١) .

وقال العلاَّمة ابن القيِّم - رحمه الله - : « إنَّ إحداثَ القولِ في تفسير كتابِ الله الذي كانَ السَّلَفُ والأئمَّةُ على خلافه - يستلزمُ أحَدَ أمْرَين : إمَّا أن يكونَ خطأً في نَفْسه ، أو تكونَ المخالفةُ له خَطأً . ولا يشكُّ عاقلٌ أنَّهُ أوْلى بالغلط والخطإ من قولِ السَّلَف » (٢) .

وقال الإمام الشَّاطبيُّ - رحمه الله - : « يجبُ على كُلِّ ناظرٍ في الدليلِ الشرعيِّ مُراعاةُ ما فَهِمَ منه الأوَّلون ، وما كانوا عليه في العملِ به ؛ فهو أحرى بالصَّواب ، وأقْوَمُ في العلمِ والعَمَل » (٣) .

هُمُ النُّجُومُ ، مَسَائلُها إذَا الْتَبَسَتْ ... عَلَيْكَ عِنْدَ السُّرَى (٤) يا صاحبي السُّبُلُ
اتَّبِعْ طَرِيقَتَهُمْ ، اعرِفْ حقيقَتَهُمْ ... اقْرأْ وَثِيقَتَهُمْ بالحُبِّ يا رَجُلُ

ولعلك - أخي - تسأل : لماذا اعتماد مَنْهَجِ السَّلَفِ في فَهْمِ الكتابِ والسُّنَّة ؟ .

والجواب : إنما قُدِّمَ فَهْمُ السَّلف على غيرهم لأمورٍ ، منها :

١- أنَّ خطَابَ الشَّارعِ متوجِّهٌ إليهم في الأصل ، وهم المرادون به قَبْلَ غيرِهم.

٢- أنَّهم عاصروا التشريعَ ، فَعَلِمُوا مواقعَ التنزيلِ ، وورودَ الأدلَّةِ على الوقائعِ والأحوالِ .

---

(١) « الصارم المنكي » (ص٤٢٧) .

(٢) « مختصر الصواعق المرسلة » (١٢٨/٢) .

(٣) «الاعتصام » (٧٧/٣) ، والبيهقيُّ في « المدخل » (٢٣٣) ، والآجريُّ في « الشريعة » (ص ٥٨) بسندٍ صحيحٍ .

(٤) **السُّرَى**: مصدر سرى يسري ، إذا سار ليلاً .

٣- لأنَّهم أهلُ الفصَاحة والبَيَانِ ، والوَحْيُ جاءَ بلِسَانِهم ، والرَّسولُ ﷺ يُوضِّحُ لهم ما أشكلَ عليهم .

٤- أنَّ النُّصوصَ من الكتابِ والسُّنَّةِ الدَّالةَ عَلَى فَضْلِهم ، وعُلُوِّ قَدْرِهِمْ - قد تواترتْ .

٥- لأنَّ اللهَ - سبحانه وتعالى - قد جعل لهُمُ الإمامةَ في الدِّين لِمَنْ بعدَهم ، وأثنى عليهم ، وعلى مَنْ تَبِعَهُم ، وسلَكَ سبيلَهم ، وإنما نَالَ التَّابعُ الفَضْلَ لفضلِ المتبوع .[1]

«جَزَاهُمُ اللهُ عَنْ دينِ الرَّسُولِ ، فَمَا أَحْلَى مَآثِرَهُم فِي سَالف الحِقَبِ[2]
لَوْلا لَطَائِفُ صُنْعِ اللهِ مَا نَبَتَتْ تِلْكَ المَكَارِمُ في لحمٍ ولا عَصَبِ »

فما أحراك - أخي في الله - أن تحشوَ سمعَ المستمع ، وبَصَرَهُ ، وفُؤَادَهُ بكلامِ الله ، وكلامِ رسولِ الله - ﷺ - ثُمَّ أقوالِ أهلِ العلمِ والفَضْلِ من السَّلفِ، ومَنْ سَلَكَ سبيلَهم ، فهذا - واللهِ - هو العِلْمُ ، وفي الصَّباحِ ما يُغْني عن المصباحِ .

مَضَى السَّلَفُ الأَبْرارُ يَعْبقُ ذِكْرُهُم فَسِيرُوا كَمَا سَارُوا عَلَى البِرِّ واصْنَعُوا



(١) انظر «العقيدة السلفية» للجديع (ص٢٥) . قال شيخ الإسلام في الفتاوى (٢١/٢٩١) : « وكُلُّ قَولٍ ينفرِد به المتأخِّرُ عن المتقدِّمين ، ولم يسبقْهُ إليه أحدٌ منهم - فإنه يكونُ خطأً ، كما قال الإمام أحمدُ بْنُ حنبلٍ : إيَّاكَ أنْ تتكلَّم في مسألةٍ ليس لك فيها إمامٌ » .

(٢) الحِقَب : جمعُ حِقْبةٍ ، وهي مُدَّةٌ طويلةٌ مُبْهَمَةٌ من الزَّمان .

اختيارُ الموضوع

إن جوهرَ الخُطْبة هو الموعظةُ الحسنةُ من القرآن والسُّنّة بفهْم سَلَف الأُمّة ، وكذلك كانت خطبتُه ـ ﷺ ـ كما وصفها الصَّحابيُّ الجليل جابرُ بْنُ سَمُرةَ ـ ؓ ـ، ووصف موضوعَها ومحتواها ، وأوجز قال ـ ؓ ـ : « كان للنبيِّ ـ ﷺ ـ خُطْبتان ، يجلسُ بينهما ، يقرأُ القرآنَ ، ويُذكِّرُ النّاسَ » (١) .

وقالَ الإمامُ ابنِ القيِّم – رحمه الله – واصفًا هَدْيَ النَّبيِّ – ﷺ – في خُطَبه : « كان يُعلِّمُ أصحابَه في خطبته قواعدَ الإسلامِ ، وشرائعَه ، ويأمرهم، وينهاهم في خطبتِه ، إذا عرضَ له أمرٌ أو نَهْيٌ » (٢) .

والظاهر من محافظته – ﷺ – في خطبته على الأمر بتقوى الله ، والتحذير من غضبه ، والتَّرغيب في مُوجبَات رضاه ، وقراءة القرآن – وجوبُ ذلك ؛ لأنَّ فعلَه – ﷺ – بيانٌ لما أُجْمِلَ في آية الجُمُعَة ، وقد قال – ﷺ –: « **صلّوا كما رأيتُمُوني أُصلِّي** » ، وقد ذهب إلى هذا الشافعيُّ .

وقال بعضُهم : « مواظبتُه – ﷺ – دليلُ الوجوبِ » . قال في « البدر التمام » : « وهو الأظهرُ ، واللهُ أعلمُ » (٣) .

قال الإمامُ العزُّ بْنُ عَبْد السَّلام – رحمه الله – :

« ولا ينبغي للخطيبِ أنْ يذكرَ في الخُطْبة إلاَّ ما كان يُوافقُ مقاصدَها من الثناءِ والدعاءِ ، والترغيبِ والترهيبِ بذِكْرِ الوَعْدِ والوعيد ، وكُلُّ ما يحثُّ على

(١) رواه مسلم في الجمُعَة (٨٦٢) ، وأبو داود في الصَّلاة (١٠٩٤) ، والنّسائيُّ في الجُمُعة (١٤١٩)، وابن ماجَه في إقامة الصَّلوات (١١٠٦) ، وأحمد في مسنده .

(٢) «زاد المعاد» (١/٤٢٧) .

(٣) انظر «الموعظة الحسنة» (ص٣١) ، و«الأجوبة النافعة» (ص ٥٦–٥٧) بإفادة الشيخ مشهور ابن حسن – حفظه الله – في كتابه « القول المبين في أخطاء المصلّين » (ص٣٧٣) .

طاعةٍ ، أو يزجُرُ عن معصيةٍ ، وكذلك تلاوة القرآن ، وكان النبيُّ - ﷺ - يخطب بسورة (ق) في كثيرٍ من الأوقات [١] لاشتمالها على ذكر الله ، والثناء عليه ، ثم على علمه بما توسوس به النفوس ، وبما تكتبه الملائكةُ على الإنسان من طاعةٍ وعصيانٍ ، ثم تذكر الموتَ وسَكَراته ، ثُمَّ تذكر القيامةَ وأَهْوالَها ، والشَّهادةَ على الخلائق بأعمالها ، ثُمَّ تذكر الجنَّة والنَّار ، ثُمَّ تذكرُ النُّشورَ والخروجَ من القبورِ ، ثُمَّ بالوصيَّة في الصلوات ، فما خَرَجَ عَنْ هذه المقاصد فهو مُبْتَدَعٌ ، ولا ينبغي أن يُذْكَرَ فيها الخُلَفَاءُ ، ولا الملوكُ ، ولا الأُمَرَاءُ [٢] ؛

---

(١) قال الشيخ مشهورُ بْنُ حسنٍ - حفظه الله - في حاشية كتابه الماتع « القولِ المبينِ » (ص٣٧١ - ٣٧٢) : « والعجبُ من مواظبة أكثر أئمة المساجد على قراءة السَّجدة في فجرِ كلِّ يوْم جمعةٍ ، ولا تكاد ترى أحداً من الخطباءِ في بلادنا يقرأ سورة (ق) (قلتُ : وبلادنا كذلك) في خطبة يوم الجمعة مع أن في « صحيحِ مسلم » (٥٩٥/٢) رقم (٨٧٣) ، و « مسند أبي داود » (٢٨٨/١ رقم (١١٠٠ ، ١١٠٢) ، « والمجتبى» للنَّسائيِّ (١٥٧/٢) عن أمِّ هشامٍ بنت حارثةَ قالت : « ما أخذتُ ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله - ﷺ - يقرؤها كُلَّ يوم جُمُعَةٍ على المِنْبَرِ، إذا خَطَبَ النَّاس » . نعم ، صحَّ عن النبيِّ - ﷺ - أنه قرأ « السَّجدة » و « الدَّهر » فَجْرَ الجمعة ، ونصَّ عليه الأئمَّةُ ، ولكن لا يستحبُّ المداومةُ عليها ؛ لئلاَّ يظنَّ النَّاسُ أنها مُفَضَّلَةٌ بسجدةٍ ، قاله الإمام أحمد ، وانظر « المغني » (٢٢٢/٢ - مع الشرح الكبير) ، و « الباعث » (ص٥١) ، و«فتح الباري» (٣٧٩/٢) ، و« سفر السعادة » (ص٤١) . ونصَّ الحافظ أنه لم يَرَ في شيءٍ من الطُّرقِ التصريحَ بأنه - ﷺ - سجد لما قرأ سورة « السجدة » إلا في حديثين ، قال في أحدهما : « وفي إسناده من ينظر في حاله » ، وقال في الآخر : « في إسناده ضعف » .

وذكرِ القرافيُّ في « الفروق » (١٩١/٢) : أنه شاع عند عوامِّ مصرَ أنَّ الصبحَ ركْعَتان إلاَّ في يوم الجمعَةِ ، فإنه ثلاثُ رِكعاتٍ (قلتُ : وعندنا كذلك) ؛ لأَجل أنهم يرون الإمام يواظب على قراءة السَجدةِ يومَ الجمعَة ويسجد ، ويعتقدون أنَّ تلك ركعةٌ أخرى واجبة ، وقال : « وسدُّ هذه الذرائع متعيَّنٌ في الدِّينِ ، وكان مالكٌ شديدَ المبالغة فيها » . وانظر « إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك » (ص٢٢١- ٢٢٢) ، و« ما لا يجوزَ فيه الخلاف بين المسلمين » (ص٩٧-٩٨) .

(٢) نقل القرطبيُّ في « تفسيره » (١٠٧/١٨) عن الزَّمخشريِّ قولَهُ : « فإن قُلْتَ : كيفَ يُسَّرِ ذكرِ الله بالخطبة وفيها غير ذلك؟!. قلتَ: ما كان من ذكرِ رسولِ الله - ﷺ - والثناء عليه ، وعلى خلفائه الراشدين ، وأتقياء المؤمنين ، والموعظة والتذكير - فهو في حكم ذكر الله ، فأما ما عدا ذلك من ذكر الظَّلَمَة ، وألقابهم ، والثناء عليهم ، والدعاء لهم ، وهم أَحِقَّاء بعكس ذلك - فهو من ذكر الشيطان ، وهو من ذِكْرِ الله على مراحل» انتهى .

لأن هذا موطنٌ مختصٌ بالله ورسوله بما يحثُّ على طاعته، ويزجرُ عن معصيته ﴿ وأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجنُّ : ١٨] .

ولو حدثَ بالمسلمين حادثٌ ، فلا بأسَ بالتحدُّث فيما يتعلّقُ بذلك الحادث مما حَثَّ الشَّرْع عليه ، وندب إليه : كعدوٍّ يحضر ، ويحثُّ الخطيبُ على جهاده ، والتأهُّب للقائه ، وكذلك ما يحدث من الجَدْبِ الذي يُستسقى لمثْله ، فيدعو الخطيب بكَشْفه .

وعلى الخطيب اجتنابُ الأَلْفَاظ الَّتي لا يعرفها إلا الخواصٌّ ؛ فإنَّ المقصودَ نَفْعُ الحَاضرين بالترغيب والتَّرْهيب ، وهذا من البدَع القبيحة ، ونظير ذلك أنْ يخطبَ للعرب بألفاظ أعجميَّة لا يفهمونها ، والله أعلم»[١] .

هَذَا هُوَ العلْمُ لا طينٌ ، ولا حَجَر ولا خُيُولٌ ، ولا عيسٌ[٢] ، ولا بَقَرُ
هُوَ النَّجَاةُ ، هُوَ الرِّضْوانُ، فَاحْظَ بِه وَمَا سِوَى العِلْمِ لا عَيْنٌ ، ولا أَثَرُ



(١) « فتاوى العزّ بن عبد السّلام » (ص٧٧- ٧٨) .
(٢) **العِيْسُ** : الإبِلُ البيضُ ، يُخالطُ بياضَهَا شقرَة ظلمة خفيَّة.

التَّثبُّتُ في النَّقْلِ

على الخطيبِ أن يكونَ أميناً في النَّقْلِ ، دقيقًا في العَرْضِ ، وأن يَعْزوَ[١] الأحاديثَ إلى مصدرها من كُتبِ الصِّحاحِ والمسانيدِ مع بيانِ درجتِها من الصِّحَّة.

فقد نقلَ القاسميُّ فتوى الإمام ابن حجرٍ الهيثميِّ – رحمه الله – ما نصُّه: « وسُئلَ – رحمه الله – في خطيبٍ يَرْقَى المِنْبَرَ في كُلِّ جُمُعةٍ ، ويَرْوِي أحاديثَ كثيرةً ، ولم يبيِّنْ مُخرِّجيها ، ولا رُواتَها ، فما الذي يجبُ عليه ؟» .

فأجاب بقوله : « ما ذكره من الأحاديث في خُطْبةٍ مِنْ غيرِ أنْ يُبيِّنَ رُواتها ، أو مَنْ ذَكَرَها – فجائزٌ بشرط أنْ يكونَ من أَهْلِ المعرفةِ في الحديث ، أو بنقلها من مُؤلِّفه من أهل الحديث ، أو خطب ليس مؤلفه كذلك ، فلا يحلُّ ذلك ، ومن فعله عَزَّرَ عليه التعزيزَ الشَّديدَ ، وهذا حالُ أكثرِ الخُطَبَاء ، فإنَّهُمْ بمجرَّد رُؤْيَتِهِمْ خُطْبَةً فيها أحاديث حَفِظُوهَا ، وخَطَبُوا بهَا مِنْ غَيْرِ أنْ يَعْرِفوا أَنَّ لتلك الأحاديث أصلاً أم لا ، فيَجبُ على حُكَّامِ بَلَدِ هَذَا الخَطِيبِ مَنْعُهُ مِنْ ذَلكَ ، إن ارتكبه » . ثُمَّ قَالَ : « فعلى هذا الخطيب أنْ يبيِّنَ مُسْتَنَدَهُ في رُوَايَتِه ، فإنْ كان مستنداً صحيحاً ، فلا اعتراضَ عَلَيْه ، وإلاَّ ساغ الاعتراضُ عليه ، بل وجاز لوليِّ الأمر – أيَّدَ اللهُ به الدِّين ، وقَمَعَ بعَدْله المُعَاندين – أنْ يعزلَهُ من وظيفة الخَطَابَة زاجراً له عن أنْ يتجرَّأَ على هذه المرتبةِ السُّنِّيَّة بغيرِ حَقٍّ» اهـ .[٢] .

وكما يجبُ على الخطيب أنْ يَتبيَّنَ درجَةَ الحديث ، وذكر مَصْدَرِه ، فإنَّه يَجبُ عليه ألاَّ يذكرَ أيَّ فائدة إلا بعَزْوِها (أي نسبها) إلى قائلها ؛ فقد قيل : « مِنْ بركةِ العِلْمِ وشُكْرِه عَزْوُه إلى قائله » .

---

(١) **يعزو** : ينسب .

(٢) « قواعد الحديث » (ص٣٩) .

وقال العلاَّمة القاسميُّ – أيضًا – :

« لا خفاءَ أنَّ منَ المدارك المهمَّة في باب التَّصنيف عَزْوَ الفوائد ، والمسائلِ، والنُّكَت[١] إلى أربَابها تبرُّؤًا منَ انتحالِ ما ليسَ له ، وترفُّعًا عن أنْ يكونَ كلابس ثَوْبَي زُوْرٍ »[٢] .

وقال السيوطيُّ – رحمه الله – في « مقاماته » :

« وكان الحافظُ ابْنُ حجرٍ يُعلِّمُ طَلَبتَهُ – إذا نقلوا حديثًا أوردوه لهم أو أثرًا – أن يقولوا : روى فلانٌ ، أو خرَّج فلانٌ بإفادة شيخنا ابْنِ حَجَرٍ ؛ كُلُّ ذلك حرْصًا على أداء الأمانة ، وتجنُّب الخيَانَة – فإنَّهَا بئْسَت البطَانَةُ – ، وامتثالاً للحديث ، واقتداءً بالأئمَّة في القديمِ والحديث ، وتحرُّزًا عن الكذب والتَّشبُّع ، وتوفيةً لحقِّ التَّتبُّع » .

ويجوزُ للخطيبِ ذكْرُ القَصَصِ ، ولكن يجبُ أَنْ يكونَ صادقًا ، متحرياً صادقَ الأخبارِ والمقبولَ منها ، ويجبُ أَنْ يُخرِّجَ الأخبارَ منها تخريجًا صحيحًا .

وإذا اعتمدَ الخطيبُ في خُطْبَته على كُتُبٍ وأَشْرطةٍ ، فعليه أَنْ يَعْزُوَ لمن نَقَلَ عنهم مع ذكرِ اسمِ الكتاب واسمِ الشَّريط ؛ حتَّى لا تزولَ بركةُ خُطْبته ، فإنَّ بركةَ العلْمِ عَزْوُهُ إلى قائله ، كما قال ذلكَ غيرُ واحدٍ من أهل العلم ، والله أعلمُ .

---

(١) **النُّكَت** : جمع نُكْتَة، وهي المسألةُ العلميَّةُ الدَّقيقةُ يُتوصَّلُ إليها بدقَّة وإنْعامِ فِكْرٍ.
(٢) « قواعد التحديث » (ص٤٠) .

مُخَاطَبَةُ النَّاسِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

على الخطيب أن يُخاطبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولهم ؛ فإنَّه لكُلِّ مقامٍ مقالٌ، ولكُلِّ مناسبةٍ حالٌ ، ولكُلِّ دولةٍ رجالٌ ، وليس كُلُّ ما يُسْمَعُ يُقالُ ، وخيرُ الكلام ما كان مُطابقًا لمقتضى الحال .

وما أحسنَ قول الشاعر :

تَرفَّقْ عَلَيَّ - هَداكَ المَليكُ - فإنَّ لكُلِّ مقامٍ مقالا

روى الإمام البخاريُّ - رحمهُ الله - عن عليِّ بن أبي طالبٍ - رضي الله عنه - أنَّهُ قال : « حدِّثوا النَّاسَ بما يعرفون ؛ أتحبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ ؟! » [(١)] .

وفي روايةٍ أُخرى أنَّهُ قالَ - أيضًا - : « ودَعُوا ما يُنْكِرون » [(٢)] .

ومعنى يعرفون: يفهمون، والمراد بـ(ما يُنْكِرون) : ما يَشْتَبِهُ عليهم فَهْمُهُ [(٣)] .

قال صاحب عمدة القارئ - رحمه الله - : « أمر عليٌّ- رضي الله عنه - في قوله هذا بمُرَاعاة مُسْتَوى فَهْمِ النَّاسِ عند التَّحدُّث إليهم ، وبيَّنَ ما يترتَّب على عدمِ مُرَاعَاته منْ تكذيب الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنَّ الشَّخْصَ إذا سَمِعَ ما لا يَفْهمُهُ ، وما لا يَتصوَّر إمكانَهُ - يعتقدُ اسْتحَالَتَهُ جَهْلاً ، فلا يُصَدِّقُ وُجودَهُ ، فإذا أُسْندَ إلى الله ورسوله يلزم تكذيبهما » [(٤)] .

وقال ابنُ حجرٍ - يرحمَهُ الله - مُعلِّقًا على قول عليِّ بن أبي طالبٍ - رضي الله عنه - : « وفيه دليلٌ على أنَّ المُتَشَابهَ لا ينبغي أنْ يُذْكَرَ عند العامَّة » [(٥)]

(١) « صحيح البخاري مع الفتح » (١/٢٢٥) .
(٢) « المرجع السابق » (١/٢٢٥) .
(٣) « المرجع السابق » (١/٢٢٥) .
(٤) « عمدة القارئ » (٢/٢٠٥) .
(٥) « فتح الباري » (١/٢٢٥) .

وقال العلاَّمة ابن القيِّم - رحمه الله - : « وضابطُهُ أنَّكَ تَعْرِضُ مسْألَتَكَ على الشَّريعَة ، فإنْ صَحَّتْ في ميزانها ، فانظر مآلها إلى حال الزَّمان وأَهْله، فإنْ لمْ يُؤَدِّ ذكرُها إلى مفسدة ، فاعرضْهَا في ذهْنكَ على العُقُول ، فإنْ قابلتها فلكَ أنْ تتكلَّمَ فيها، إمَّا على العُمُومِ إنْ كانَتْ ممَّا تقبلَهُ العُقُولُ ، وإمَّا على الخصوصِ إنْ كَانَتْ غير لائقَة بالعُمُومِ ، وإنْ لَمْ يكُنْ لمسألتكَ هَذَا المَسَاغُ ، فالسُّكوتُ عنها هو الجاري وَفْقَ المصلحة الشَّرعيَّة والعقليَّة » [(١)] .

وقال الإمامُ الشاطبيُّ - رحمه الله - : « ليس كُلُّ ما يُعلم ممَّا هو حقٌّ يُطلب نشرُهُ ، وإن كانَ منْ علْمِ الشَّريعَة ، وممَّا يُفيدُ علْمًا بالأحكام ، بلْ ذَلكَ يَنْقَسمُ : منه ما هو مطلوبُ النشرِ - وهو غالبُ علْمِ الشَّريعَة - ، ومنْهُ ما لا يُطْلَبُ نشْرُهُ بالنسبة إلى حالٍ ، أو وقتٍ ، أو شَخْصٍ » [(٢)] .

وقال صاحبُ الإحياءِ : « كِلْ لِكُلِّ عَبْدٍ بمعيارِ عَقْله ، وزِنْ لَهُ بميزان فَهْمه ؛ حتَّى تسلمَ منه ، وينتفعَ بك ، وإلا وقعَ الإنكارُ لتفاوتِ المعيار » [(٣)] .

قلتُ : والخطيبُ الذكيُّ هو الذي ينظر إلى حالِ النَّاسِ ؛ حتَّى يستعدَّ لهم، وقد قال رسول الله - ﷺ - لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « **إنَّكَ ستأتي قومًا أهلَ كتابٍ** ... » [(٤)] . فأخبره - ﷺ - بحالِهِمْ ؛ حتَّى يستعدَّ لهم ، كما قال بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ .

وليس كُلُّ موضوعٍ أو حديثٍ صحيحٍ تُحَدَّثُ به العامَّةُ ، فعن أنسٍ أن

---

(١) « أعلام الموقعين » (٤/١٦٣) .
(٢) « الموافقات » (٤/١٨٩ - ١٩٠) .
(٣) « الإحياء » (١/٧١) .
(٤) أخرجه البخاريُّ في الزَّكاة (١٤٩٦) ، ومسلمٌ في الإيمان (١٩) ، وأصحاب السُّنن في الزَّكاة ، وهو عند أبي داود (١٥٨٤) ، والتِّرمذيِّ (٦٤٥) ، والنَّسائيِّ (٢٤٣٧) ، وابن ماجه (١٧٨٣) ، عن ابن عبَّاسٍ .

النبيَّ - ﷺ - قال لمعاذ وهو رَديفُه على الرَّحْلِ (١) : « **مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِه إلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ على النَّار** » قالَ : « يا رسولَ الله ، أَفَلا أُخْبِرُ به النَّاسَ ؛ فيستبشروا ؟! » . قال : « **إذًا يتَّكلُوا** » . فأخبر بها مُعاذٌ عندَ مَوْته تَأَثُّماً (٢) (٣) .

قالَ بعضُ العُلَمَاءِ : « النَّهْيُ في قوله - ﷺ - : « **لا تُبَشِّرْهُم** » مخصوصٌ ببعضِ النَّاس ، وبه احتجَّ البخاريُّ على أنَّ للعالِمِ أنْ يَخُصَّ بالعلمِ قوماً دون قومٍ كراهةَ أنْ لا يَفْهَمُوا ، وقد يتَّخذُ أَمْثالَ هذه الأَحاديث البَطَلَةُ (٤) والمباحية (٥) ذريعةً إلى تَرْكِ التَّكاليف ، ورَفْعِ الأحكامِ ، وذلك يُفضي إلى خرابِ الدُّنْيا بعْدَ خَرابِ العُقْبَى ، وأَين هؤلاءِ مِمَّنْ إذَا بُشِّروا زادوا جدّاً في العِبادَة ؟! .

وقد قيل للنَّبيِّ - ﷺ - : « أتقومُ اللَّيلَ ، وقد غفر اللهُ لك ؟! » . فقال - ﷺ - : « **أفلا أكونُ عبْدًا شكوراً** ؟ » (٦) (٧) .

قال الحافظ ابن حجرٍ - رحمه الله - : « وممَّنْ كَرِهَ التَّحديثَ ببعضٍ دون بعضٍ : أحمدُ في الأحاديث التي ظاهرها الخروجُ على الأمير ، ومالكٌ في أحاديثِ الصِّفَاتِ ، وأبو يُوسُفَ في الغَرائِبِ ، ومن قبلهم أبو هريرة كما رُوِيَ

---

(١) رديفه : خلفه .

(٢) تأثُّماً : أى خوفًا مِنَ الإثم فى كَتْمِ هَذَا العِلْمِ .

(٣) أخرجه البخاريُّ في العلم (١٢٨) ، ومسلمٌ في الإيمان (٣٢) .

(٤) يقال: أبطل : إذا جاء بالباطل، والبطلة : هم السَّحَرَة والشَّياطين ، وفي مسند أحمد من حديث أبي أمامة: «**اقرءوا القرآن؛ فإنَّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**» وأخرجه مسلم.

(٥) **المباحية** : كذا في الأصل ، ولعلَّها الإباحية .

(٦) أخرجه البخاريُّ في التهجُّد (١١٣٠) ، وفي الرِّقاق (٦٤٧١) ، ومسلمٌ في صفات المنافقين (٢٨١٩) ، والتِّرمذيُّ في الصَّلاة (٤١٢) ، والنَّسائيُّ في قيام الليل (١٦٤٥) ، وابن ماجه في إقامة الصَّلوات (١٤١٩) .

(٧) انظر « التيسير في الوعْظ والتذكير » لسعيد عبد العظيم (ص٣٣) طبعة دار الإيمان ـ إسكندريَّة .

عنه في الجرابيْن [١] أنَّ المراد ما يقع من الفتنِ ونحوه عن حذيفةَ وعَنْ الحسنِ أنَّهُ أنْكرَ تحديثَ أنسٍ للحجَّاج بقصَّة العُرَنِيِّيْنَ [٢] ؛ لأنه اتخذها وسيلةً إلى ما كان يعتمده منَ المبالغة في سَفْكَ الدِّمَاء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أنْ يكونَ ظاهرُ الحديث يُقوِّي البدْعَةَ ، وظاهرُهُ في الأَصلِ غير مرادٍ ، فالإمساكُ عَنْهُ عِنْدَ مَنْ يخْشَى عَلَيْه الأخذَ بظاهره مطلوبٌ » اهـ .

قلتُ : فعلى هذا لا ينبغي للخطيب أَنْ يَذْكُرَ اختلافَ الفُقَهاء عِنْدَ العامَّة، وإنَّمَا يذكرُ لهم الحقَّ الرَّاجح مِنْ أقوالِ الفُقَهاءِ معَ الدَّليل ؛ لِئَلاَّ يُوقِعَهُم في حَيْص بَيْص .

وعليه – أيضًا – أَنْ يُحَدِّثَ كُلَّ قومٍ بمَا يُناسبهم ، فأهلُ البادية ينْتَشرُ عندهم السِّحْرُ ، والشَّعوذةُ ، والاعتقادُ بالأولياء ، والإخلالُ بالصَّلاة ، وهذا حال المناطق النَّائية ، ولا سيَّما المحرومةُ منَ العُلُوم الشَّرْعيَّة .

وأَهْلُ المُدُن معَ قُرْبِهم من أهلِ العلم – تسودُ فى أَغْلَبهم الغَفْلَةُ ، ولها أسبابُها ، وبعضُهم تقْبَلُ عليهم الشُّبُهاتُ ، والأفكارُ الوافدةُ ، فلا يتفطَّنون لها إلا من رَحمَ ربُّك ، والسَّبَبُ يعْرِفُهُ اللَّبيبُ .

أَحَقُّهُمْ بِالحُكْمِ مَنْ عَشِقَ العُلاَ ... وبِالأَمْنِ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ الشَّدَائِدُ

---

(١) في مسند أحمدَ أنَّ أبا هريرةَ قال : «**حفظتُ ثلاثةَ أجربة ، بثثتُ منها جرابين**» .

(٢) **العرنيُّون** : نَفَرٌ قَدِمُوا على النبيِّ ﷺ فَاجْتَوَوُا المدينةَ (أي كَرِهُوها) في قصةٍ طويلةٍ ، راجع «صَحيح البخاريّ مع الفتح» (١٢/٩٨) .

طريقة الإنكار على الولاة

مِنْ منْهَجِ أهل السُّنَّة والجماعة جمعُ القلوب علي وُلاتهم ، والعملُ على نشرِ المحبَّة بين الراعي والرَّعيَّة مع قيامِهم بمناصحة الوُلاة سرّاً، فهم وسطٌ بين طائفتين : إحداهما - الخوارج والمعتزلة الذين يرون الخروجَ على السلطان إذا فعلَ منكرًا ، والأخرى - الروافض الذين أَضْفَوا على حُكَّامهم قداسةً ، حتى بلغوا بهم مرتبةَ العصْمَة . وكلا الطَّائفتين بمَعْزِلٍ عَن الحَقِّ والصَّوَاب ، وبمنأىً عن صريحِ السُّنَّة والكتَاب ، ووفَّق اللهُ أهلَ السنَّة والجماعة - أَهْلَ الحديث - إلى عينِ الهُدَى والحقِّ ، فذهَبوا إلى وجوب إنكارِ المنكر ، لكن بالضَّوابط الشَّرْعيَّة التي جاءتْ بها السُّنَّةُ ، وكانَ عليها سَلَفُ هذه الأُمَّة ، ومن أهمِّ ذلك وأعظَمِه قَدْرًا أنْ يُنْصَحَ وُلاةُ الأمرِ سِرًّا فيما صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ مُنْكَراتٍ ، ولا يكون ذلك عَلى رءوسِ المنابر ، وفي مجامعِ النَّاسِ ؛ لما ينجم عن ذلك - غالبًا - من تأليب العامَّة ، وإثارة الرَّعاع [1]، وإشعال الفتن [2] .

وممَّا يدلُّ على ذلك حديثُ أسامةَ بن زيد أنه قيلَ له : « ألا تدخلُ عَلَى عُثْمَانَ لتُكَلِّمَهُ ؟! » . فقال : « أتَرَوْنَ أنِّي لا أُكَلِّمُهُ إلاَّ لأُسْمِعَكُمْ ؟! ، واللهِ ، لَقَدْ كَلَّمتُهُ فيما بيني وبيْنَهُ دُونَ أنْ أفتحَ أمرًا ، لا أُحبُّ أَنْ أكُونَ أوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ» [3] .

قال الإمام محمد ناصر الدين الألبانيُّ - رحمهُ الله - : «يعني المجاهرة بالإنكارِ على الأُمَرَاءِ في الملإ ؛ لأنَّ في الإنكارِ جهَاراً ما يُخشى عاقبته ، كما

---

(١) **الرَّعاع من الناس** : الغوغاء الذين لا قلب لهم ولا عقل ، أتباع كُلِّ ناعقٍ .

(٢) انظر « معاملة الحكّام في ضوء الكتاب والسنة » ابن برجس (ص ٤٢- ٤٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في بدْء الخلق (٣٢٦٧) ، وفي الفتن (٧٠٩٨) ، ومسلمٌ - واللَّفظ له - في الزُّهد والرَّقائق (٢٩٨٩) .

اتُّفِقَ في الإنكارِ على عُثْمَانَ جِهاراً ، إذْ نَشأَ عَنْهُ قَتْلُهُ » اهـ [١] .

وقال الشوكانيُّ - رحمه الله - :

« ينبغي لِمَنْ ظَهَرَ لَهُ غَلَطُ الإمامِ في بعضِ المسائلِ أَنْ يُناصِحَهُ ، ولا يُظْهِرَ الشناعةَ عَلَيه على رؤوسِ الأشهادِ » [٢] .

وقال ابن النحاس : « ويختار الكلام مع السلطان في الخَلْوَة على الكلامِ مَعَه على رؤوسِ الأشهادِ ، بل يودُّ لو كلمه سِرّاً ، ونَصَحَه خفيةً من غير ثالثٍ لهما » [٣] .

وقال العلاَّمة عبدُ العزيزِ بْنُ بَازٍ - رحمه الله - :

« ليس من مَنْهَجِ السَّلَف التَّشهيرُ بعُيُوبِ الوُلاة ؛ لأنَّ ذلك يُفضي إلى الانقلابات ، وعَدَمِ السَّمْعِ والطَّاعَة في المعروف ، ويُفضي إلى الخروجِ الذي يضرُّ ولا يَنْفَعُ ، ولكن الطريقةَ المتَّبعة عند السَّلَف النَّصيحةُ فيما بينهم وبين السُّلْطان ، والكتابةُ إليه ، أو الاتصالُ بالعُلَمَاء الذين يتَّصلون به ؛ حتى يُوجَّه إلى الخير ، وإنكارُ المنكر يكون من دون ذكرِ الفاعلِ ، فينكر الزِّنى ، وينكر الخمر ، وينكر الرِّبا من دون ذكر مَنْ فَعَلَه ، ويكفي إنكارُ المعاصي والتَّحْذير منها من غير ذكر أنَّ فلاناً يفعلُها ، لا حاكماً ولا غيرَ حاكمٍ، ولما وَقَعَتْ الفتْنَةُ في عَهْد عُثْمانَ ، قال بعضُ النَّاسِ لأسامةَ بن زيدٍ - رضي الله عنه - : « ألا تُنْكِرُ عَلَى عثمانَ ؟! » . قال : « أُنْكِرُ عليه عند النَّاسِ ؟! ، ولكن أُنْكِرُ عليه بيني وبَيْنَهُ ، ولا أَفْتَحُ باب شرٍّ على النَّاسِ » .

ولما فتحوا الشَّرَّ في زمنِ عثمانَ - رضي الله عنه - وأنكروا على عثمان جَهْرَةً -

---

[١] «مختصر مسلم» (٣٣٥) .

[٢] «السيل الجرار» (٤/٥٥٦) .

[٣] «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين ، وتحذير السالكين من أفعال الهالكين» لابن النحاس (ص٦٤) .

تمَّتْ الفتنةُ ، والقتالُ ، والفسادُ الذي لا يزال النَّاس في آثارِه حتَّى اليوم ، حتى حصلتْ الفتنةُ بين عليٍّ ومُعاويةَ ، وقُتلَ عثمانُ وعليٌّ بأسباب ذلك ، وقتل جمٌ كثيرٌ من الصَّحابة وغيرهم بأسباب الإنكار العلَني ، وذكر العُيُوب علَنًا ، حتى أبْغَضَ الناسُ وليَّ أمرِهِمْ ، وحتى قتَلُوهُ، نسأل الله العافية ! » [١].

وقال العلاَّمة محمَّدُ بْنُ صالح العُثَيْمين – رحمه الله – :

« إنَّ مخالفةَ السُّلطان فيما ليس من ضروريَّاتِ الدِّينِ علَنًا ، وإنكارُ ذلك عليهِ في المحافلِ [٢] ، والمساجد ، والصُّحُف ، ومواضعِ الوعْظ ، وغيرِ ذلك – ليس من باب النَّصيحة في شيءٍ ، فلا تغترَّ بمَنْ يفعلُ ذلك – وإنْ كانَ عنْ حسنِ نيَّة – فإنَّه خلافُ ما عليه السَّلَفُ الصَّالحُ المُقْتَدَى بهم ، والله يتولَّى هُداك» [٣] .

وقد توالتْ تحذيراتُ السَّلَف منْ هذَا المَسْلَك الخاطِئِ علَى تعاقُب القُرُون ؛ لأنَّ الخروجَ باللِّسَان أساسُ الخُرُوج بالسِّلاحِ ، والعُنْف لا يُربِّيه إلاَّ الكَلِمةُ .

قال العلاَّمة صالح السدلان – حفظه الله – : « فالبعضُ من الإخوان قدْ يفعل هذا بحسنِ نيَّة معتقداً أنَّ الخروجَ إنَّمَا يكونُ بالسِّلاحِ فقط ، والحقيقةُ أنَّ الخروجَ لا يقْتَصرُ على الخروج بقوَّة السِّلاحِ ، أو التَّمرُّد بالأساليب المعروفة فقط ، بل إنَّ الخروجَ بالكلمة أشَدُّ منَ الخُروجِ بالسِّلاحِ ؛ لأنَّ الخروجَ بالسِّلاح والعُنْف لا يُرَبِّيه إلا الكلمةُ ، فنقولُ للإخوة الذين يأخذهم الحماسُ ، ونظنُّ منهم الصَّلاحَ – إنْ شاءَ اللهُ تعالى – : عليهم أنْ يتريَّثوا ، وأنْ نقول لهم: رُوَيْداً ؛ فإنَّ صَلَفَكُمْ وشدَّتَكُمْ تُربِّي شيئًا في القلوبِ ، تُرَبِّي القُلُوبَ الطَّريَّة التي

---

(١) من فتاوى للشيخ مطبوعة في آخر رسالة « حقوق الراعي والرَّعيَّة » (ص٢٧ – ٢٨) .
(٢) **المَحافلُ** : المجتمعاتُ الكبيرةُ ، والمفرد مَحْفَل .
(٣) « مقاصد الإسلام » للشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – (ص٣٩٣) .

لا تعرفُ إلاَّ الاندفاعَ ، كمَا أنَّها تفتحُ أمامَ أصْحَابِ الأغْرَاضِ أبوابًا ليتكلَّموا ، ويقولوا ما في أنفسهم ، إنْ حَقّاً ، وإنْ باطلاً .

ولا شكَّ أن الخروجَ بالكلمة ، واستغلالَ الأقلامِ - بأيِّ أسلوبِ كان - أو استغلالَ الشَّريطِ والمحاضراتِ والنَّدَواتِ في تَحْميسِ النَّاسِ على غيرِ وَجْهٍ شرعيٍّ - أعتقدُ أنَّ هَذا أساسُ الخَروجِ بالسِّلاحِ ، وأُحَذِّرُ منْ ذلكَ أشدَّ التَّحْذيرِ ، وأقولُ لهؤلاءِ : عليكم بالنَّظرِ إلى النتائجِ ، وإلى مَنْ سَبَقَهُمْ في هذا المجال ، وَأَنْ يَنْظروا إلى الفتَنِ التي تعيشُها بعضُ المجتمعاتِ الإسلاميةُ ما سببها ؟ ، وما الخَطْوَةُ التي أَوصَلَتْهم إلى ما هم فيه ؟ ، فإذا عرفنا ذلك ، أَدْرَكْنا أَنَّ الخُروجَ بالكلمَة ، واستغلالَ وسائلَ الإعلامِ والاتصال للتَّنْفيرِ والتحميسِ والتَّشْديدِ - يُرَبِّي الفتنةَ في القُلُوبِ » [1] .

والأحاديثُ على ما سبق كثيرةٌ ، منها حديثُ ابن عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أنَّ رسولَ الله - ﷺ -قال : « **مَنْ رأى منْ أَميرِه شيئًا يكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ ؛ فإنَّهُ ليس أَحَدٌ يُفَارِقُ الجماعةَ شبْرًا فيموتُ ، إلاَّ ماتَ مِيْتَةً جاهليَّةً** » [2] .

وعن أبي بَكْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ : سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ : « **مَنْ أهان السُّلطانَ ، أَهَانَهُ اللهُ** » [3] .

واعلم - أخي - أنَّ هذا الباب مهمٌّ جداً ، ضلَّ فيه قومٌ ، وقصَّر فيه آخرون، حتى اتَّهم بعضُهم علماءَ أهلِ السُّنَّة بالجَهْلِ بالواقع ، والعَمَالة للسَّلاطين ، فإنَّ علماءَ أهلِ السنَّة - لله درُّهم - فَهْمٌ بفَهْمٍ نافذٍ وبَصَرٍ ثاقبٍ

(١) « مراجعات في فقه الواقع السياسيِّ » د / عبد الله الرفاعي (ص٨٨-٨٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في الفتنة (٧٠٥٤) ، وفي الأحكام (٧١٤٣) ، ومسلمٌ في الإمارة (١٨٤٩) ، وأحمد في «مسنده» (٢٧٥/١ و ٢٧٧ و٣١٠) .

(٣) رواه التِّرمذيُّ في الفتن (٢٢٢٤) ، وقال : حَسَنٌ غريبٌ ، وأحمد في «مسنده» (٤٢/٥)، والطَّيالسيُّ في مسنده (١٦٧/٢) ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦١١١) ، وفي الصَّحيحة (٢٢٩٦) .

قَدْ كفُّوا عمَّا خاض فيه عوامُّ النَّاسِ ، وصدق مَنْ قال : « الذي لا يَفْقَهُ دِيْنَهُ ، لا يَفْقَهُ وَاقِعَهُ » .

وَلَكِنَّهُمْ رَكِبُوا مَسْلَكًا يَحِيدُ عَنِ الجَدَدِ المُشْرِقِ
وَقَدْ مَلَكَ الأَمْرَ مِنْهُمْ رِجَالٌ يُخَالِفُ مَنْطِقُهُمْ مَنْطِقِي
نَأَوْا [١] عَنْ هُدَى اللهِ فِي نَهْجِهِمْ وسَارُوا ، وَسِرْتُ ، فَلَمْ نَلْتَقِ

وكما يجبُ إنكارُ المنكر بالضَّوابط الشَّرْعيَّة ، فإنَّه يجبُ على الخطيب ألاَّ يُزيِّنَ ظُلْمَ الحُكَّامِ ، ويُسَوِّغَ ذلك للنَّاسِ ؛ فإنَّ ذلك مَدْعَاةٌ لزُهْدِ النَّاسِ في الخطيب ، والنفور عنه .

وأخيرًا أَخْتِمُ هذا البابَ بحديث عياض بن غنم - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله - ﷺ - : « **مَنْ أراد أَنْ يَنْصَحَ لسلطانٍ بأَمْرٍ ، فلا يُبْدِ لَهُ علانيةً ، ولكن ليأخذْ بيدِهِ ، فيخلو به ، فإن قَبِلَ منه فذاك ، وإلاَّ كان قد أدَّى الذي عليه** » [٢] .



(١) نَأَوا: بَعُدُوا .
(٢) أخرجه الإمام أحمدُ في «مسنده» ، وصحَّحه الألبانيُّ في كتابه « ظلال الجنَّة في تخريج السُّنَّة » (٢/٥٢١-٥٢٢) .

تقصيرُ الخُطْبَةِ

الإطالةُ هي آفَةُ الخُطَباء ، وهي تضرُّ الدَّعوةَ أكثرَ ممَّا تنفعُها ؛ فالطَّاقَةُ الذِّهْنيَّةُ محدودةٌ ، وقد ثَبَتَ - علميّاً - أنَّه لا يُمْكِنُ للسَّامع - في العادة - أنْ يُتابعَ بانتباه لأكثرَ من ١٥ دقيقةً ، وبعدها يُصيبُهُ الإعياءُ والشُّرودُ (١) ؛ فمن الأفضَلِ أنْ تكونَ الخُطْبَةُ من ١٥ دقيقة إلى ٣٠ دقيقةً لا يُزادُ عليها ؛ لأنَّهُ من الخير للنَّاسِ أنْ يعرفوا أشياءَ قليلةً معرفةً تامَّةً عن أنْ يَعْرفوا أشياءَ كثيرةً معرفةً عامَّةً ؛ لذا كان من سَعَةِ علْمِ الخطيبِ قِصَرُ الخُطْبَةِ ، وإطالةُ الصَّلاة ، فعن عمَّار بْنِ ياسرٍ - ﷺ - قالَ سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول :

« إنَّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَته مَئِنَّةٌ منْ فِقْهِه (٢) ؛ فَأَطيلُوا الصَّلاَةَ ، وَأَقْصِرُوا الخُطْبَةَ (٣) ، وَإنَّ منَ البَيَانَ لَسِحْراً » (٤) .

وليس هذا الحديث قصداً مخالفاً للأحاديث المشهورة في الأمر بتخفيف الصَّلاة لقول جابر بن سَمُرَةَ - ﷺ - : « كنتُ أُصَلِّي مَعَ رسولِ الله -ﷺ-

(١) انظر « كيف ندعو النَّاس ؟» لعبد البديع صقر (ص٥٤) .

(٢) مَئِنَّةٌ: علامة، وإنما كان قصرُ الخطبة علامةً على فقْه الخطيب؛ لأنَّ الفقيهَ المطَّلعَ على حقائق المعاني، وجوامعِ الألفاظ - يتمكَّنُ من التعبير بالعبارة الجزلة المفيدة؛ ولذلك كان من تمام هذا الحديث «فَأَطيلُوا الصَّلاة، وَأَقْصِرُوا الخطبة، وَإنَّ منَ البَيَان لَسحْرًا» «الموعظة الحسنة» (ص٣٠-٣١) . وقال علي محفوظ - رحمه الله -: «فأَحسنَ الكلامَ ما كان قليلُهُ يغنيه عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان اللهُ - عزَّ وجلَّ - قد كساه من الجلالة، وغشَّاه من نور الحكمة على حسب نيَّة صاحبه، وتقوى قائله» «فنُّ الخَطَابَة» (ص٦٨) . وفي هذا المعنى يقول أبو الطَّيِّب:

« يـدلُّ بمعنـى واحد كـل فاخر وقد جمع الرحمن فيه المعانيا » .

(٣) لا شكَّ أنَ الأمرَ يُفيدُ الوجوبَ ، والنَّهيَ يفيدُ التَّحريم، كما هو مقرَّرٌ في علمِ الأصولِ، فلفظ الأمر في الحديث بقوله : « وأقصروا » و «أمرنا » ، ولفظ النهيِ بقوله : « نهى» .

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة (٨٦٩) ، وأبو داود (١١٠٦) ، وأحمد في المسند (٢٦٣/٤)، وابن خزيمة في صحيحه (١٧٨٢)، وأبو يعلي في المسند (١٦١٨ ، ١٦٢١ ، ١٦٤٢) .

فكانت صلاتُه قَصْدًا ، وخطبتُه قَصْدًا » [١] ؛ لأنَّ المراد بالحديث الَّذي نحن فيه أن الصلاةَ تكون طويلةً بالنسبة إلى الخُطْبة ، لا تطويلاً يَشُقُّ علَى المأمومين وهي حينئذٍ قَصْدٌ – أي معتدلةٌ –، والخطبة قصد بالنسبة إلى وَضْعها [٢] [٣] .

أقوالُ أهْل العلِم في تقصير الخُطبَة :

قال الشافعيُّ – رحمه الله – : « وأُحِبُّ أن يكونَ كلامُهُ قَصْدًا جامعًا ، وإذا فعل ما كَرِهْتُ له من إطالة الخُطْبَةِ ، لم يكن عليه إعادةٌ » [٤] .

وقال ابن العربيِّ المالكيُّ :

« الخُطْبَةُ كُلُّ كلامٍ له بالٌ ، وأقلُّه حَمْدَ الله ، والصَّلاةُ على نبيِّه ، ويحذِّرُ، ويُيسِّرُ ، ويقرأُ شيئًا منَ القرآن ، ولا يُطيلها ، ذكر أبو عيسى عن جابر ابن سَمُرَةَ: « أنَّ النبيَّ – ﷺ – كانَتْ صلاتُه قَصْدًا ، وخُطْبَتُه قَصْدًا » . وخرَّج في الصحيح : « **طولُ صلاة الرجل ، وقِصَرُ خُطْبَته مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِه** » ، وكذلك كان الخُلَفَاءُ الأربعةُ بعدَه يفعلون » [٥] .

---

(١) أخرجه مسلمٌ في الجُمُعة (٨٦٦) ، وأبو داود في الصلاة (١١٠١) ، والتِّرمذيُّ في الجُمُعة (٥٠٧) ، وقال : حسنٌ صحيحٌ ، والنَّسائيُّ في صلاة العيدين (١٥٨٣) ، وابن ماجَهْ في إقامة الصَّلوات (١١٠٦) .

(٢) «شرح النووي على مسلم» (٦/١٥٨ – ١٥٩) .

(٣) قد ثبت أن سنة قراءته – ﷺ – في الجُمُعَة كانت بـ « الجمعة ، والمنافقين » كما في حديث ابن عبَّاسٍ الذي في صحيح مسلمٍ (٨٧٩) ، وبـ« الأعلى، والغاشية » كما في حديث النُّعمان ابن بشيرٍ عند مسلم – أيضًا – (٨٧٨) ، علمنا بذلك أنَّ صلاةَ الجُمُعة بالتقدير الحالي – أيضًا – حوالي عشر دقائقَ ، كما تكون الخطبةُ أقصرَ من هذه الصلاة الموصوفة بالطُّول مقارنة لها . فإذا اعترض معترضٌ بأنَّ الدَّقَائقَ العَشْرَ لا تكفي لوعظ الناس ، فالجواب : بل تكفي – إن شاء الله – وإلاَّ فكيفَ تكفي مُعلِّمَ البَشريَّة في عصرٍ ما بعد الجاهليَّة ؟!. عن كتاب « العجالة في سُنِّيَّة تقصير الخُطْبَة » لأحمد عبد اللَّطيف الكويتيِّ (ص١٣) .

(٤) «الأمُّ» للشافعيِّ (١/٣٣٠) .

(٥) « عارضة الأحوذي » (١/٢٩٦) .

وقال ابنُ قُدامَةَ :

« ويستحبُّ تقصيرُ الخطبة لما رَوَى عمَّارٌ ، وجابرُ بْنُ سَمُرَةَ » (١) .

وقال ابن القيِّم – رحمه الله – واصفاً هَدْيَهُ – ﷺ – في خطبته :

« وكان يقصرُ الخطبةَ ، ويُطيل الصَّلاةَ ، ويُكْثِرُ الذِّكْرَ ، ويقصدُ الكلمات الجوامعَ ، وكان يقول : « **إنَّ طُولَ صلاة الرَّجلِ ، وقِصَرَ خطبته مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِه** » اهـ (٢) .

وقال الزبيديُّ – رحمه الله – :

« وقدَّر أصحابُنا ـ أي الأحنافُ ـ تخفيف الخُطْبَتين بقَدْر سورةٍ من طِوَال المفَصَّلِ (٣) ، وكَرِهُوا التَّطْويلَ مُطْلقاً » (٤) .

وقال صاحب الإحياء – رحمه الله – :

« وتكونُ الخطبةُ قصيرةً ، بليغةً ، جامعةً » اهـ (٥) .

وقال النَّوويُّ – رحمه الله – :

« ويُستحبُّ تقصيرُ الخُطبة للحديث المذكور ؛ وحتَّى لا يَملُّوها ، قال أصحابُنا (أي الشَّافعيَّةُ) : ويكون قصرُها مُعْتَدلاً ، ولا يبالغ بحيث يَمْحَقُهَا » (٦) .

وقال الإمام ابن الأمير الصَّنعانيُّ – رحمه الله – :

« وإنَّما كان قِصَرُ الخطبَةِ علامةً على فِقْهِ الرَّجُلِ ؛ لأنَّ الفقيهَ هو المطَّلِعُ

---

(١) « المغني » (٢/٣٠٨) .
(٢) « زاد المعاد » (١/٤٢٦– ٤٢٧) .
(٣) **طوال المفصَّل** : من سورة ق إلى النَّجم، وقيل النَّازعات.
(٤) « إتحاف السعادة » (٣/٢٣١)
(٥) « إحياء علوم الدين » (٣/٢٣٠) .
(٦) « المجموع شرح المهذب » (٤/٥٢٨) .

على حقائقِ المعاني ، وجوامعِ الألفاظِ ، فيتمكّنُ مِن التعبيرِ بالعبارةِ الجزْلَةِ المفيدة » [١] .

وقال الإمام الشوكانيُّ – رحمه الله – :

« قوله : « قَصْدًا » القَصْدُ في الشَّيْءِ : هو الاقتصاد فيه ، وتَرْكُ التَّطويلِ ، وإنما كانت صلاتُه – ﷺ – وخُطْبَتُه كذلك ؛ لئلاَّ يَمَلَّ الناسُ ، وأحاديثُ البابِ فيها مشروعيَّةُ إقصارِ الخُطْبَةِ ، ولا خلافَ في ذلك » [٢] [٣] .

قال محمَّد صديق حسن – رحمه الله – :

« وقد كان – ﷺ – يُصلِّي الجُمُعَةَ بـ« الجُمُعَةِ والمنافقين » ، كما عند مسلمٍ عن ابن عبَّاسٍ ، وعن النُّعمان بن بشيرٍ – رضي الله عنه – : « وكان يقرأُ في العيدين، وفي الجُمُعَةِ بـ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، وذلك طولٌ بالنسبةِ إلى خُطْبَتِهِ ، وليس بالطُّولِ المنهيِّ عنه » [٤] .

« مَا بَنَى جُمْلَةً مِنَ اللَّفْظِ إلاَّ وابْتَنَى اللَّفْظُ أُمَّةً مِنْ عَفَاءِ
مَنْطِقٌ يَمْلأُ القُلُوبَ جَلاَلاً في حُبُورٍ ، وبَهْجَةٍ ، وصَفَاءِ! »



(١) « سبل السلام » (١٠٠/٢) .
(٢) « نيل الأوطار » (٣٣٢/٣) .
(٣) قلت : « لِئلاَّ يَمَلَّ النَّاس » ، ومَنْ الناسُ هنا غيرُ الصَّحابَة ؟! ، والخطيبُ هنا هو سيِّدُ الخطباء ، فأين خطيبُنا من خطيبِهم ؟! ، وأين ناسنا من ناسِهم ؟! .
(٤) «الموعظة الحسنَة » ، و« الأجوبة النافعة » للألبانيِّ (ص٥٧) .

علومٌ مرتبطةٌ بالخطابة

أ - علمُ المَنْطِق :

علْمُ الخطابة له صلةٌ وثيقةٌ بعلمِ المنطق ؛ فعلمُ المنْطق يبحثُ عن القوانين التي تعصمُ الذّهْنَ من الخطإ ، ويستنبطُ ما يُرشدُ الذّهْنَ إلى الأخذ بالقوانين السابقة ، وأيضًا يبحثُ عَنْ أهواء النّفْسِ ، وخواطرها ، وأسباب الغلط ، وتسللِ الخواطر ، وكُلٌّ تلك الأمور تساعد الخطيبَ في أَدَاءِ مُهمّتِه ، وتمدُّ قوانين الخَطَابَة بمناحي التأثير ، وطرق الإقناع .

وإذا تعلّم الخطيب «علم أصول الفقه» ، أغناه عَنْ عِلْمِ المنطق؛ فبين علم أصول الفقه والمنطق وشائجُ القُرْبَى، وتداخلُ المسائلِ، وتقاربُ المناهجِ، وتداني المآخذ.

ب - علم النّفس :

إذا كان علمُ النّفسِ دِعامةً [1] لعلم التّربية، فهو - أيضًا - دعامةٌ لعلمِ الخَطَابَة ؛ لأنَّ كليهما يهدي الإنسان إلى وسائلِ الإقناعِ ، فاستخدام علم النفس في الخطابة يجعل التأثير في الجمهور أبعد منالاً ، فعن طريق علم النفس يستطيع الخطيب أنْ يبعثَ الميول من مراقدها ، ويوجّهَهَا إلى الغاية التي يريدها.

ولا تظنَّ - أخي - أنَّ الرسولَ - ﷺ - وأصحابَه كانوا بمنْأىً عن هذا العلم ؛ فإنك إذا قرأتَ التاريخَ ، وكان عندك إلمامٌ بعلم النفس الحديث - أمكنك أن تعرفَ مكانَهم منه ، فهم إن لم يكونوا يدرسونه في الكتب ، ويتلقّونه عن المعلّمين - فقد كانوا في تعاملهم مَعَ النّفْسِ البشرية في القمّة ، لا يكاد أحدٌ يلحق بهم ، ولا يبلغ مَبْلَغَهم ، وذلك فَضْلُ الله ، يؤْتيه مَنْ يشاء .

« فعلم النفس مصطلحٌ جديدٌ ، لكنّه ليس بغريبٍ ، فهو قَرِينُ العلم

(١) دِعامة - بكسر الدّال - : ركنًا وعمادًا ، والجمع دعائم.

التَّربويِّ وربيبُه ، فالدَّعوة والتَّربية صنْوان لا يفترقان ، والرسولُ - ﷺ - كانَ داعيةً ومُربِّيًا في آنٍ واحدٍ ، والأنبياءُ مَنْ قَبْله كذلك ، وهكذا العلماءُ المصلحون كانت وظيفتهم - في الغالب - دعويَّةً تربويَّةً ، وقد تسبقُ الدَّعوةُ التربيةَ ، ولكنها لا تنفصلُ عنها ؛ إذ أنَّ المَدْعُوَّ الَّذي استجابَ للدَّاعية لابدَّ أنْ يتربَّى على يديه ، أو على يدي غيره ممَّن هم على نَهْجِه ، وفي مَدْرَسَتِه » [١] .

جـ - علمُ الاجتماعِ :

هو علم الجماعات، يُعطيك صورةً لتكوينها، وتفكيرها، وطرق التأثير فيها.

قال الفارابي : « إنَّ الخطيبَ إذا أرادَ بلُوغَ غايته ، وحسنَ سياسة نَفْسه في أمورِه - فَلْيَتَوَخَّ [٢] طِبَاعَ النَّاسِ ، وتَلَوُّنَ أخلاقِهم ، وتَبَايُنَ أحوالِهم » .

وقال أبو زهرةَ - رحمه الله - :

« الواعظُ يتصدَّى لقيادة جماعةٍ إلى فكرةٍ يدعو إليها ؛ فلابُدَّ أن يكونَ عالمًا بنفسيَّة الجماعات ، وسُلْطان العادات ، وكيف يتغلَّبُ عليها ، ويُمَزِّقُ أغشيةَ الجُمُود ، إنْ كانتْ جامدةً على باطلٍ ، وكيف يَنْهَنُهُ من حِدَّتِها ، ويُكَفْكِفُ عن غربها ، إنْ كانتْ مندفعةً متهورةً وراءَ غايةٍ باطلةٍ » .

وأخيرًا - أخي - لابُدَّ أنك تريد - الآن - أنْ تعرفَ ما هي القوانين التي ذكرها ابن سيناء - وسبقَ الإشارةُ إليها في طرق تحصيلِ الخطابة - فهي هذه العلومِ الثلاثة ، فهي التي استمدَّ علمُ الخَطَابَة منها قوانينه ، وعلى ضوئها سَلَكَ طريقه ، يقول الشيخ أبو زهرةَ - رحمه اللهُ - عن هذه العلوم : « هي الأنهارُ التي يأخذُ منها هذا العلمُ (أي علمُ الخطابة) ماءَ الحياة » [٣] .

---

(١) « علم النَّفس الدَّعويُّ » د / عبد العزيز النغيمشي (ص٥) ، وننصح باقتنائه ، فهو مفيدٌ جدًّا للخطيب .

(٢) فَلْيتوخَّ : أي فليُرَاعِ ، يقال : توخَّى يَتَوَخَّى تَوَخِّيًا .

(٣) « الخطابة » (ص٢٢) .



آداب الخطابة

١ - تحضيرُ الخطبةِ.
٢ - عناصرُ الخطبةِ.
٣ - الإلهامُ.
٤ - حُسْنُ الافتتاح.
٥ - تقويم اللسان.
٦ - الصَّوتُ.
٧ - الإشارةُ.
٨ - التعبيرُ.
٩ - الأسلوبُ.
١٠ - الشعرُ.
١١ - السَّجْعُ.
١٢ - الأهْواءُ والميولُ، والأمورُ المثيرة لها، وهي:
أ - اعتقادُ الخطيبِ بصحَّةِ ما يدعو إليه.
ب - المشاركةُ الوجدانيَّةُ.
جـ - اللَّذَّةُ والألمُ.
د - الغرائزُ.
هـ - بواعثُ الانتباهِ.
و - التَّكرار والتَّوكيدُ.
١٣ - البَدَاهَة.
١٤ - الختامُ.

١- تحضير الخُطْبة

لابُدَّ لك – عزيزي الخطيب – من تهيئة نَفْسكَ للتَّحْضير بإفراغها من الشَّواغلِ ؛ حتَّى تكونَ نيَّتُكَ صافيةً ، ورغبتُكَ قويَّةً ؛ فإنَّ الأَمرَ الشاغلَ مانعٌ لك من سَدَادِ الرَّأي ، وتَسَلْسُلِ الأفكار .

قال أبو تمَّام لأبي عَبَادَةَ البُحْتُريُّ: «يا أبا عبادةَ، تخيَّرْ الأوقاتَ وأنت قليلُ الهُمُومِ، صفرٌ[١] من الغُمُومِ، واعلمْ أنَّ العادةَ في الأوقات إذا قصدَ الإنسانُ تأليفَ شيْءٍ أو حفْظَهُ – أنْ يختارَ وَقْتَ السَّحَرِ؛ وذلك أنَّ النَّفْسَ تكونُ قد أخذت حَظَّها من الرَّاحة، وقسْطَهَا منَ النَّوم، وخفَّ عليها ثقلُ الغذاء. واحذرْ المجهولَ منَ المعاني، وإيَّاكَ أنْ تشـينَ شعْرَكَ بالألفاظ الوحشيَّة، وناسبْ بيْنَ الألفاظ والمعاني في تأليفِ الكلامِ، وكُنْ كأنَّك خيَّاطٌ، تقدِّر الثيابَ على مقاديرِ الأجسام.

وإذا عارضك الضَّجَرُ، فأَرِحْ نَفْسَكَ، ولا تعملْ إلاَّ وأنت فارغُ القَلْبِ، ولا تنْظِمْ إلاَّ بشَهْوةٍ؛ فإنَّ الشَّهْوَةَ نعْمَ المُعينُ على حُسْنِ النَّظْمِ.

وجملة الحالِ أنْ تعتبرَ شعْرَكَ بما سلَفَ من أشعار الماضين، مما استحسن العلماءُ فاقْصدْهُ، وما استقبحوهُ فاجْتَنبْهُ»[٢].

وعليك بتنقيح كلامك ، وتنقيته من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، والآراء الشاذَّة ، والأقوال المرجوحة .

وما أحسن ما أشار أبو تَمَّامٍ إلى التَّهذيب بقوله :

خُذْهَا ابْنَةَ الفكْرِ المُهَذَّبِ في الدُّجَى[٣] والليلُ أسْودُ رُقْعَةِ الجِلْبَابِ![٤]

---

(١) صفـرٌ – بتثليث الصَّاد – : خالٍ ، جمعه أصفار.
(٢) «جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (ص٢٣).
(٣) الدُّجى : الظُّلمات ، والمفرد دجية .
(٤) «جواهر الأدب» (ص٢٢) .

٢- عَنَاصِرُ الخُطْبَةِ

لا شكَّ أنَّ تقسيمَ الخُطْبَة وقايةٌ للخطيب من الهَذَرِ، والخروجِ على الموضوعِ، وتكرارِ المعاني، ويعودُ على السَّامعين بتسهيلِ إدراكِ الموضوعِ، وترويحِ خاطرِهم، فينشطون للسَّماع بالانتقال من قسمٍ إلى آخر كسلسلةٍ مُتَّصلةِ الحَلَقَاتِ.

وصفات التَّقسيم الحَسَنِ:

١- التَّعريف .

٢- الصِّفات .

٣- الثَّمرة .

فإذا كانتِ الخطبةُ حَولَ التَّقْوى - على جادَّةِ المثالِ - فيكون التَّحضير كالآتي:

١- تعريفُ التَّقوى .

٢- صفات المتَّقين .

٣- ثمرة التقوى .

وقد يكون التحضير مبتكراً، فصفات تقسيمه:

١- المظاهر.

٢- الأسباب .

٣- العلاج .

فإذا كانتْ الخطبةُ حوْلَ الاختلاطِ - على جادَّةِ المثالِ - فيكون التحضير كالآتي:

١- مظاهرُ الاختلاطِ .

٢- أسبابُ الاختلاطِ .

٣- عِلاج الاختلاطِ .

٣ - الإلهام

الإلهام: هو ما يقع في القلبِ من سَدَادٍ في الرَّأي ، وانفجارِ معلوماتٍ سَبَقَ لكَ دراستُها من زمانٍ بعيدٍ، ولم تتوقعْ انفجارَها .

وكُلَّما أخلصَ الجُمْهُورُ في الإقبالِ والاستماعِ للخطيبِ، كانَ الخطيبُ أكثرَ إبداعًا ، كما قَالَ الخطيبُ البغداديُّ - رحمه الله - : « نشاطُ القائلِ على قَدْرِ فَهْمِ المُسْتَمِعِ » [١] .

وقال أبو عباد - رحمه الله - : « نشاطُ المُحَدِّثِ على قَدْرِ فَهْمِ السَّامعِ » [٢] .

وقد يستغربُ الخطيبُ الذي لم يَحْضُرِ الخُطْبَةَ كيف تَنْسَابُ الأدلَّةُ كالسلسبيلِ مَعَ مُراعَاة الحالِ، والزَّمانِ، والمكانِ، وكيف استطاعَ أَنْ يستحضرَ الأدلَّةَ وكأنَّه يقرأُ في كتابٍ .

ولكنْ ذلك ليس بغريبٍ على مَنْ عرفَ الإلْهَامَ، فالإلهامُ حَقٌّ، وعرَّفَهُ العلماءُ أنَّه: وَحْيٌ باطنٌ، وإنَّما حرم العاصي لاستيلاء وَحْي الشَّيْطان عليه [٣].

قال السمعانيُّ : « ونحن لا نُنْكِرُ أنَّ اللهَ يُكْرِمُ عَبْدَهُ بزيادة نورٍ منه، يزدادُ به نظرُهُ، ويقتدي به رَأْيُهُ ، وإنَّما نُنْكِرُ أَنْ يرجعَ إلى قلْبه بقولٍ لا يعرفُ أَصْلَهُ ، ولا نَزْعُمُ أَنَّهُ حُجَّةٌ شرعيَّةٌ، وإنَّما هو نورٌ يَخْتَصُّ اللهُ به مَنْ يشاءُ من عباده، فإنْ وَافَقَ الشَّرْعَ كانَ الشَّرْعُ هو الحُجَّةَ » [٤] .

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي» (٣٣١/١) .
(٢) «زهرة الأدب» للحصري .
(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (٤٢/٢٠ - ٤٧) ، و«جامع العلوم والحكم» (١٠٢/٢ - ١٠٤) .
(٤) «فتح الباري» (٣٨٩/١٢) .

٤- حُسْنُ الافتتاح

حسن الافتتاح : هو ما يُسَمِّيه علماءُ البلاغة ببراعة الاستهلال ، وهو أن يكونَ الابتداءُ لائقًا بموضوعِ الخطبة ، فعلى الخطيب أنْ يعتنيَ بها تمامَ العناية، وأنْ يَزِيِّنَها بكُلِّ وسائل التَّجميل التي تجذبُ الأفكارَ ، وتُهيِّئُ الأسماعَ ؛ فقد قيلَ : « خيْرُ الكلامِ ما شوَّقَ أوَّلُه إلى سَمَاعِ آخره » .

قالَ ابنُ الأثير في « المثل السائر » : « وإنما خُصَّتْ الابتداءاتُ بالاختيارِ؛ لأنَّها أوَّلُ ما يَطْرُقُ السَّمْعَ من الكلامِ ، فإذا كان ذلك الابتداءُ لائقًا بالمعنى الوارد بعدَهُ ، توافرتْ الدَّواعي على استماعه ، ويَكْفيك منْ هذا البابِ الابتداءاتُ الواردةُ في القرآ الكريم : كالتَّحميدات المُفْتَتح بها أوائلُ السُّوَرِ ، وكذلك الابتداءاتُ بالنِّداء : كقوله – تعالى – في أوَّل سورة الحجِّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجّ : ١] ؛ فإنَّ هذا الابتداءَ ممَّا يُوقظُ السَّامعين للإصغاء إليه » .

ونقلَ الجاحظُ عن ابن المُقفَّع قولَهُ : « ولْيَكُنْ في صَدْرِ كلامك دليلٌ على حاجتك ، كما أنَّ خيرَ أبيات الشِّعْرِ البيتُ الذي إذا سَمِعْتَ صَدْرَه، عرفت قافيَتَهُ (كأنه يقول : فرِّقْ بَيْنَ صَدْرِ خُطْبة النِّكاحِ ، وبَيْنَ صَدْرِ خُطْبَة العيد ، وخُطْبة الصُّلح ، وخُطْبة المواهب) ؛ حتَّى يكونَ لكُلٍّ من ذلك صَدْرٌ يدلُّ على عَجُزه ، فإنَّه لا خيرَ في كلامٍ لا يدلُّ على معناه ، ولا يُشير إلى معزاه، ولا إلى العمود الذي إليه قَصَدْتَ ، والغرضِ الذي إليه نزعتَ » .

ويُسْتَحْسَنُ في الافتتاحِ أمورٌ، منها :

١- أنْ يكونَ قصيرًا مُوْجَزًا ، ما دام في الإيجازِ وفاءٌ بالغرضِ .

٢ - ألاَّ يكونَ مُبْتَذَلاً مُشاعاً ، تَمُجُّه الأسماعُ ، وتنفرُ منه الطِّباعُ .

٣ - أنْ يكونَ موافقاً للموضوع ، مُلتئماً معه .

وأنواعُ الافتتاحِ أربعةٌ :

١- السَّهْلُ .

٢- الجزْلُ .

٣- البَديهيُّ .

٤- المُلوَّحُ .

فالسَّهْلُ : ما يبين فيه الموضوعُ بلا تكلُّفٍ ، ويَصْلُحُ للخُطَبِ المألوفة .

والجزْلُ: ما كان أنيقَ اللَّفْظ، شريفَ المعنى، ويَصْلُحُ للنَّوازِل[1] المهمَّة، إذْ يَتَوَقَّعُ الجُمْهُورُ ما يَكْشِفُ عن عَظَائِمِ الأُمورِ ، كَقول أبي بَكْرٍ - ﷺ - : « أيُّها الناسُ ، مَنْ كان يَعْبُدُ محمَّداً ، فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومَنْ كان يعبدُ اللهَ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ »، ثُمَّ تلا الآيةَ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِه الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] [2] .

والبَديهِيُّ : ما أصابَ السَّامعَ على غيرِ انتظارٍ ، وأبْرَزَ عن حميمِ العواطف، والقلوب المتألِّمة ، ومقامه الوقائعُ الباغتةُ ، والطوارئُ المُفْجعةُ .

والمُلوَّحُ - أو المُعَرَّضُ - في اللُّغة : خِلافُ المُصرَّح.

وفي الاصطلاح : ما يَخْرُجُ مَخْرَجَ الكناية أو التَّعريضِ ، ويُسْتَعْمَلُ في سياسةِ النُّفوسِ النَّافرةِ ، وترقيقِ القلوبِ العاتيةِ المتكَبِّرةِ (الجبَّارة) [3] .

---

(١) **النَّوازل** : جمع نازلة، وهي المصيبة.
(٢) رواه البخاريُّ في الفضائل (٣٦٦٨) .
(٣) « فنُّ الخطابة » (ص٥٣) بتصرُّفٍ .

٥ - تقويمُ اللِّسانِ

ما أجملَ أنْ يتعلَّمَ الخطيبُ مِنْ لسان العربِ ما يجلو به الشُّبَهَ ! ، فينطق بالكلمات بلا عُجْمةٍ ولا لحْنٍ ، صحيحةً في مخارجها ، صادقةً في جرسها ؛ فإنَّ اللَّحْنَ يَذْهبُ برونقِ الخُطْبَةِ، وبهائِها ومضائِها .

قال ابن بسَّامٍ :

فَلاَ تَعْدُ إِصْلاَحَ اللِّسَانِ ؛ فَإِنَّهُ ... يُخْبِرُ عَمَّا عِنْدَهُ وَيُبَيِّنُ
وَيُعْجِبُنِي زِيُّ الفَتَى وَجَمَالُهُ ... وَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِي سَاعَةَ يَلْحَنُ
عَلَى أَنَّ لِلإِعْرَابِ حَدّاً ، وَرُبَّمَا ... سَمِعْتُ مِنَ الإِعْرَابِ مَا لَيْسَ يَحْسُنُ
وَلاَ خَيْرَ فِي اللَّفْظِ الكَرِيهِ سَمَاعُهُ ... ولا في قَبِيحِ الظَّنِّ بالفعلِ أحصنُ

وقد حثَّ السَّلفُ على تعلُّم العربيَّةِ ؛ لأنَّها سِرُّ نباهةِ الخطيبِ ، ومن أشرفِ العلومِ.

قال الشافعيُّ – رحمه الله – : « ينبغي لكُلِّ أَحَدٍ يقدرُ على تعلُّمِ العربيَّةِ أَنْ يَتَعلَّمَها ؛ لأنَّها اللِّسان الأَوْلى » (١) .

وقال الماوَرْديُّ : « ومعرفةُ لسانِ العَرَبِ فرضُ عينٍ عَلَى كُلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ من مجتهدٍ وغيره » (٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة – رحمه الله – : « واعلمْ أنَّ اعتيادَ اللُّغة يُؤَثِّرُ في العَقْلِ والخُلُقِ تأثيراً قويّاً ، ويُؤَثِّرُ – أيضاً – في مُشَابهةِ صَدْرِ هذه الأُمَّةِ مِنَ الصَّحابة والتَّابعين ، ومُشَابهتُهم تَزيدُ في العَقْلِ ، والدِّينِ ، والخُلُقِ، وأيضاً

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » لابن تيميَّةَ (١/٤٦٤) .
(٢) « إرشاد الفحول » لشيخ الإسلام الشوكانيِّ .

فإنَّ نفسَ اللُّغة العربيَّة من الدِّين ، ومعرفتُها فرضٌ واجبٌ ؛ فإنَّ فَهْمَ الكتاب والسُّنَّة فَرْضٌ ، ولا يُفْهَمُ إلا بِفَهْمِ اللُّغة العربيَّة ، وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ » [١] .

ولعلَّ قائلاً يقول: إنَّ العاميَّة ضرورةٌ لازمةٌ لمخاطبة النَّاس على قَدْرِ عُقُولهم!.

فالجواب عليه : **قال الدُّكتور فتحي جمعة أستاذ العلوم اللُّغويَّة بكُلِّيَّة دار العلوم بالقاهرة – حفظه الله –** : « إنَّ المُخَاطبةَ على قَدْرِ العُقُولِ لا تَعْني تبذُّلَ اللُّغَة ، أو هُبُوطَ الكلام ، وانحرافَه عن سُنَنِ الفُصْحَى ؛ وإنَّما تَعْني الابتعادَ عَنْ تعقيدِ الفِكْرَة ، والتَّقَعُّر في اللُّغة – أي تَعَمُّد اختيار الصَّعْب من التركيب ، والغريب الوحشيِّ من الكلام – .

أمَّا الجُنُوحُ إلى العاميَّة بدعوى إفهامِ العوامِّ ، فإنْ لم يكن مُدَاراةً للعجز عن الفصحى ، وقِصَرِ الباعِ في استعمالها – فهو ادِّعاءٌ يَظْلِمُ الفصحى ، والعوامَّ في وقتٍ معًا ! .

يظلمُ الفُصْحَى بأنَّها غيرُ مفهومةٍ ، ووالله ، إنَّها لمفهومةٌ ، ويظلمُ العوامَّ بأنَّهم لا يفهمون ، وتالله ، إنَّهم لَيَفْهَمون ، وإلاَّ فكيف يخشعون للقرآن ، ويتأثرون ببالغِ الموعظة ، وجميلِ البيان ؟! » [٢] .

جَمِّلِ المَنْطقَ بالنَّحْو ، فَمَنْ ... يُحْرَمِ الإعْرابَ في النُّطْق اخْتَبَلْ
فَاللِّسَانُ العَضْبُ [٣] سَيْفٌ مُصلَتٌ ... كَمْ بِسِحْرٍ مِنْ حَديثٍ قَدْ قَتَلْ !

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٤٦٨) .
(٢) «أدب التخاطب» لمصطفى العدويّ (ص٤٧) .
(٣) **العَضْبُ** : القاطع .

٦ـ الصَّوْتُ

قد تَسْمعُ قارئًا ، أو مُحدِّثًا ، أو خطيبًا ، فَتَشْعُرُ بنغماته تُثيرُ ارتياحَكَ ، وبرنينه يَهُزُّ إحساسَكَ ، وبعمقه يَصلُ إلى أبعد غَوْرٍ[١] في نَفْسك ، وقد تسمعُ منه أَجملَ العبارات الدَّالَّة على المعاني ، وقدْ يكونُ الشَّخْصُ الذي تستَمعُ إليه من صغار طَلَبَة العلْم ، فدلَّ ذلك على أنَّ للأصوات أثرًا كبيرًا في حُسْن وَقْع الكلام أو قُبْحه ، فالخُطْبَةُ دُونَ جودة الأداء جسْمٌ لا روحَ فيه ، فالصَّوْتُ يُعْطي الألفاظَ قوَّةً وحياةً ، كما قيل :

« هَذَا الكَلاَمُ الَّذي مَـا قَـالَهُ أَحَـدٌ ... وَلاَ تَلاَ مثْلَهُ في الجـمع سَحْبَـانُ[٢]
عَلَيْـــــه منْ حُلَلِ الأَنْوَارِ أَرْديَةٌ ... فَكُلُّ قَلْبٍ منَ الأَشْـــوَاق نَشْـــوَانُ
يصـدعُ الصَّخْرَ في زَجْرٍ ومَوْعظَةٍ ... وفي البـشَـارَة رَوْضٌ فيـه رَيْحَـانُ!»

وشأنه في الخطابة لعظيم ، فكم من خطبةٍ يحسن الرجل إلقاءها ، فيجد الناس في سماعها من الارتياح وهزة الطَّرب فوق ما يجدون عندما يقرءونها في كتاب .

« قُمْ خـاطب الدُّنْيَـا بنَبْـرَتكَ التي ... عَـرَفَتْ قُلوبَ الأهْلِ والأَصْحـاب
فَـمَنَابرُ التَّـوْحيـد منْ خُطَبَـائهَـا ... ومَــحَــافلُ العَلْيَــاء للخُطَّاب»

ومِمَّا يزيدُ الخُطْبَةَ بهاءً وجمالاً جَهَارةُ الصَّوت ، فعن جابرٍ – رضي الله عنه – قال: « كان رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – إذا خَطَبَ احْمرَّتْ عَيْنَاهُ ، وَعَلا صَوْتُهُ ، واشتدَّ

(١) الغَوْرُ : القَعْرُ من كلِّ شيءٍ، جمعه أغوار.
(٢) هو سَحْبَانُ بن زُفَرَ بن إياد الوائليُّ ، الخطيب المصْقَع، المضروب به المثلُ في البلاغة والبيان، نشأ في الجاهليَّة، ولمَّا ظهر الإسلامُ أسلم، وتقلَّبَتْ به الأحوالُ حتَّى التحق بمعاوية، فكان يُعدُّهُ للمُلمَّات، ويتوكَّأُ عليه عند المفاخرة.

غضبُهُ ، حتّى كأنّهُ مُنْذرُ جيشٍ يقولُ :«صبّحكُمْ ومسّاكُم» ، ويقول :«بُعثْتُ أنا والسّاعةُ كهاتين » ، ويقْرُنُ بين إصْبَعيْه السبّابة والوُسْطَى» (١) .

أَنْتَ كَنْزُ الدُّرِّ واليَـــاقُـــوت في لجُـة (٢) الدُّنيـا ، وإنْ لَم يَعْـرفُـوكَـا
مَــحْـــفَلُ الأيّامِ في شَــوْقٍ إلى صَوْتكَ العالي ، عَسَاهُمْ يَسْمَعُوكَا!

قال قُدامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ : « وممَّا يزيدُ في حُسْنِ الخَطَابة ، وجَلالَةِ مَوْقِعِها جَهَارةُ الصَّوْت ؛ فإنّهُ من أجلِّ أوصاف الخُطَباء ؛ ولذلك قال الشاعر :

جَـهِـيـرُ الكَلاَمِ، جَـهِـيـرُ العُطَاسِ شَـدِيدُ النِّيـاطِ(٣) ، جَـهِـيـرُ النَّغَمْ

وقال آخرُ:

إنْ صَاحَ يَوْمًا حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْدَحِرًا والرِّيــحَ عَاصِــفَةً، والمَــوْجَ يَلْتَـطِمُ!

وذمّ آخرُ بعضَ الخُطَباءِ برقّة الصَّوت وضآلته ، فقالَ :

ومنْ عَجَبِ الأيّــامِ أنْ قُـمْتَ خَاطبًا وأنْتَ ضَئيلُ الصَّوت مُنْتَفِخُ السَّحْرْ(٤)(٥)

فإذا كان الأمرُ كذلك ، فعلى الخطيب أنْ يجعلَ منَ المران دواءً للعيوب الصَّوْتيَّة، وأنْ يجعلَ صوتَه ناقلاً صادقًا لمشاعر نفسه ، حاكيًا صادقَ الحاكية لمعاني الوِجْدَان ، وأنْ يُشكّلَ صوتَهُ بأشكالِ صوتيّةٍ مُصَوِّرَةٍ للمعاني ، كأنَّ

---

(١) صحيح البخاريّ مع الفتح (٥٣٠/٨ ، ٤٥١/٩ ، ٢٩٩/١١) ، ورواه مسلم في الجُمُعة (٨٦٧)، والنّسائيُّ في صلاة العيدين (١٥٧٩) وابن ماجه في السُّنّة (٤٥) ، وأحمد في مسنده (٣٠٨/٤، ٩٢/٥، ١٠٣، ١٠٨) ، والحاكم في مستدركه ، وابن حبّان في صحيحه . قلتُ : وفي الحديث جواز الإشارة في الخطبة كما يدلُّ عليها الحديثُ .

(٢) اللُّجّة : معظمُ الماء ، ومنه : هو لجّةٌ واسعةٌ : أي شبيهٌ بالبحرِ في سَعَته.

(٣) نياط القلب : عرْقٌ غليظٌ نيطَ به القلبُ إلى الوتين .

(٤) انتفخ سَحْرُهُ - بفتح السين - أي : عدا طوره ، وجاوز قدرَهُ ، ومن معاني السَّحْرِ - أيضًا - الرِّئة، يقول : إن رئته سدت فراغ صدره ؛ فضئل صوته .

(٥) « نقد النثر » (ص ١٠٩) .

يجعلَ الجُملَ الاستفهاميَّةَ تختلفُ نغمَةُ إلقائها عَنْ الجُملِ التي للتمنّي ، وهكذا يُعْطي ألفاظَ الاستفهامِ ، والتَّعَجُب ، والتَّوْبيخ ، واللَّوْم ، والتقريع ، والزَّجْرِ ، والتَّفْخيم ، والتهويلِ ، والتحزُّن والنَّدمِ ، والحيرة ، والوعد ، والوعيد ، وما إلى ذلك - حقَّها من النُّطْقِ ، فيُكَيِّفُ الصَّوْتَ فيها بكيفيَّاتٍ خاصَّة ، وانفعالاتٍ تتناسبُ مع المعنى الذي يقصدُ ؛ حتّى يُثيرَ في نفس السامع الرغبةَ والرهبةَ ، والانزعاجَ والنَّدمَ ، ويُحْدِثَ فيها هزَّةَ الفرَحِ والارتياحِ تبعًا لسير المعنى الذي يتكلم فيه .

« وأنْ يَخْفضَ مِنْ صَوْته في موضعِ الخَفْضِ واللِّين ، ويشتدَّ في موضع الشِّدَّة ، ويتأفَّفَ في موضعِ التَّأفُّف ، ويتطامن في موضع التطامن: كالدُّعاء والاستعطاف ، والاسْترْحَام ، وأنْ يشمخَ بأنْفه ، ويُظْهرَ العزَّةَ وعُلُوَّ النَّفْس في موضعِ الفَخْرِ والحَمَاسَة ، وذكْرِ شرَفِ العلْمِ والتَّقْوى ، وأنْ يتأثَّرَ حتّى يَظْهَرَ أثَرُ الانفعالِ المعتدلِ في صوْته ، وإشارته ، وملامحِ وَجْهه عنْدَ ذكْرِ حادثة مُؤْلمة ، أو حكايةِ خَطْبٍ [(١)] فظيعٍ ؛ حتّى تكونَ لَهْجتُه في جميعِ ذلك لهجةَ خطابة ، لا لهجةَ تلاوةٍ ، يسردُ فيها الكلامَ سَرْدًا ، أو لهجةً ترنُّميَّةً تُخرِجُهُ عَن المألوفِ إلى نوْعٍ من الأغاني » [(٢)] .



(١) الخَطْبُ : الأمرُ العظيم المكروهُ، جمعه خُطُوب.
(٢) انظر « فنُّ الخطابة » (ص٦٦) .

٧ - الإشارة

هي حركاتٌ تبدو منْ جسْمِ الخطيب، ووجْهِه ، ويديه ، ورأْسِه ، وجَوارحِه، وحُسْنُها منْ تَمامِ حُسْنِ البيَان ؛ ولهذا قيل : « رُبَّ إشارةٍ أبلغُ من عبارةٍ » .

وقدْ وردَ في السُّنَّة أنَّ الرَّسُولَ - ﷺ - استخدَم يدَيْه في شَرْحِ بعْض المعاني، فَعَنْ أنس بْنِ مالك - رضي الله عنه - قال : صلَّى لنا النبيُّ - ﷺ - ، ثُمَّ رَقِيَ المنْبر، فأشار بيده قبَلَ قِبْلَة المسجد ، ثُمَّ قال : « **لقدْ رأيتُ - الآن مُنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمُ الصَّلاةَ - الجنَّةَ والنَّارَ مُمَثَّلتَيْنِ في قِبْلَةِ هذا الجدارِ ، فلمْ أرَ كاليومِ في الخيرِ والشَّرِّ** » ثلاثًا [(١)] .

وعن ابن عُمَرَ - رضي الله عنهما - أنَّ رسولَ الله - ﷺ - ذَكَرَ رَمَضَانَ، فَضَرَبَ بيديه فقالَ : « **الشَّهْرُ هكذا وهكذا وهكَذا** (ثُمَّ عَقَدَ إبهامَهُ في الثَّالثَة) ، **فَصُومُوا لرؤيته، وأَفْطِرُوا لرؤيته، فإنْ أُغْمِيَ عَلَيْكُمْ، فَاقْدُروا لهُ ثلاثينَ** » [(٢)] .

قال النَّوويُّ - رحمه الله - :

« وفي هذا الحديث جوازُ اعتماد الإشَارَة المُفْهِمَة في مِثْلِ هذا » [(٣)] .

« ومَا مِنْ شَكٍّ أنَّ الإشارةَ ضرورةٌ للخطيب ، فبها يُحَرِّكُ الانتباهَ ، ويَصِلُ إلى ما يَنْبغي من التأثير ، ولأنَّ الصَّوْتَ وَحْدَهُ لا يكفي للإفادة والإقناعِ ، والتعبير عن معاني اللَّذَّة ، والأَلَم ، والغَضَب ، والرِّضى ، واليَأْسِ ، والرَّجاء ، والاحتقار ، والتَّوقير ، وما إلى ذلك ما لم تُساعدْهُ حركاتُ اليَد ، ومَلامحُ الوَجْه، وبريقُ العيْنَيْنِ ، وإشارةُ الطَّرْف والحَاجِب » [(٤)] .

---

(١) رواه البخاريُّ في الرِّقاق (٦٤٦٨) ، ومسلمٌ (٢٣٥٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٩٠٨) ، ومسلم (١٠٨٠) ، وأبو داود (٢٣١٩) ، والنَّسائيُّ (٢١٤٣) ، أخرجوه جميعًا في كتاب الصِّيام ، ورواه أحمد في مسنده .

(٣) «شرح النوويِّ على مسلم» (٧/٢٦٨) .

(٤) انظر « فنُّ الخطابة » (ص٦٧) .

قَالَ الجَاحظُ : « الإشارةُ واللَّفْظُ شريكان ، ونِعْمَ العَوْنُ هي له ، ونِعْمَ التَّرْجَمَةُ هي عنْهُ ، وما أكثرَ ما تنُوبُ عَنِ اللَّفْظِ ، وتُغْني عَن الخَطِّ » (١) .

ويُستحسنُ في الإشارةِ أمورٌ ، منها :

- أنْ تكونَ الإشارةُ أنيقةً ، حَسَنَةَ الدِّلالة .
- أنْ تكونَ موافقةً للمعنى ، وسابقةً عليه ، مُمهِّدةً له .
- أن تكونَ سَريعةً ، كُلَّما كان الكلام حادّاً مُلْتَهِباً .
- يجبُ الإقلالُ منها في الكلامِ المألوفِ ، أمَّا في الحماسَةِ وغيرِها من مُثيراتِ العواطف ، فالإشارةُ لابُدَّ منها .
- ألاَّ يُكَرِّرَهَا ؛ فإنَّ في تكْرَارِها ما يدعو إلى السَّأَم ، كما لا يصحُّ الإكثارُ منها؛ فإنَّ ذلك يُذْهِبُ بسَمْتِ (٢) الخطيب وروائه .
- ألاَّ يُظْهِرَ التَّكلُّفَ والتَّصنُّعَ لهاَ .

ظهر لي فيما بعد : أنَّ المشروعَ في الخُطْبَةِ هو الإشارة بالأُصْبعِ (٣) لا الإشارة باليَدِ؛ لحديث عمارة بن رويبة - ﷺ - أنَّه رأى بشر بن مروان على المنبرَ رافعًا يديه، فقال: «قبَّحَ الله هاتين اليدين ؛ لقد رأيْتُ رسول الله ﷺ ما يزيد على أنْ يقولَ بيده هكذا، وأشار بأصبعه المسبحة» (٤) .

قال النَّوويُّ - رحمه الله - : «هذا فيه أنَّ السُّنَّة أنْ لا يرفَعَ اليدَ في الخُطبَة» (٥) .

وأشار إلى ذلك ابن القيم - رحمه الله - حيث قال: في بيان هديه ﷺ في خُطبة الجمعة : «وكان يُشير بأصبعه السباب في خطبته عند ذكر الله» (٦) .

(١) «البيان والتبيين» للجاحظ .
(٢) **سَمْتُ الخطيب** : هيئتُه ومَظْهرُه .
(٣) انظر «روضة الطالبين» (٢/٣٣) ، و«كشف القناع» (٢/٣٦) .
(٤) رواه مسلم (٨٧٤).
(٥) «شرح صحيح مسلم» (٦/١٦٢) .
(٦) «زاد المعاد» (١/٤٢٨).

٨- التَّعْبيرُ

هو تصويرُ المعاني بالألفاظ التي تُناسبُها ، فاللَّفْظُ هو الذي يُظْهِرُ المعاني ويُجَمِّلُها ، ويُبديها في رداءٍ بهيٍّ ، ورونقٍ بديعٍ .

ولقوَّة التعبير سُلْطانٌ ساحرٌ في النُّفوسِ ، فكم من حقٍّ ضاعَ لسُوءِ التعبيرِ عنه ، وكم من باطلٍ ظهر ؛ لأنَّ الَّذي يدعو إليه فصيحٌ بليغٌ .

قال الشاعر :

في زُخْرُفِ القَوْلِ تَزْيينٌ لِبَاطِله ... والحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيْرِ
تقولُ: هَذا مُجَاجُ[1] النَّحْلِ، تَمْدَحُهُ ... وإِنْ ذَمَمْتَ ، فَقُلْ : قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وذَمّاً ، ومَا غَيَّرْتَ مِنْ صِفَةٍ ... سِحْرُ البَيَانِ يُرَي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ!

قال ابنُ الأثير في « المثل السائر » :

« ومَنْ له أدْنَى تأمُّلٍ يعلمُ أنَّ للألفاظِ في الأُذُنِ نَغْمةً لذيذةً كنَغَمِ الأوتارِ ، وصوتاً مُنْكَرًا كصَوْتِ الحمارِ ، وأنَّ لها في الفَمِ - أيضًا - حلاوةً كحلاوةِ العَسَلِ ، ومرارةً كمرارةِ الحَنْظَلِ ، وهي على ذلك تجري مجرى النَّغماتِ والطُّعومِ» .

فما أجملَ أنْ يَعْتَنيَ الخطيبُ باللَّفْظ ، ويعمدَ إلى تجميله وتحسينه ، حتَّى يَبْدُوَ التَّحسينُ طبيعيّاً من غير تَكلُّفٍ ظاهرٍ ؛ لأنَّ التَّكلُّفَ إذا ظَهَرَ ثَقُلَ على النَّفْسِ ! .

فعن عبدِ الله بن عَمْرٍو - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : « **إنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيْغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بلِسَانه، كما تَتَخَلَّلُ [2] البقَرَةُ بلِسَانِهَا**»[3] .

---

(١) **المُجاج** : ما سال من الفَمِ.
(٢) أي تلفُّ بلسانها لفّاً .
(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٠٥) ، والتِّرمذيُّ في الأدب (٢٨٥٣) ، وأحمدُ في مسنده (١٦٥/٥ و ١٨٧) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٨٧٥) ، وفي « الصَّحيحة » (٨٨٠) .

« وَوَجْهُ الشَّبَه إدارةُ لسانه حَوْلَ أسنـانه وفكّه حَالَ التّكلُّم كما تفعلُ البَقَرةُ بلسانها حَالَ الأَكْلِ ، وهذا كُلُّهُ ما كان على جِهَةِ الإعجاب والتعاظُم»(١) .

وليس معنى ذلك ألاّ يَحْرِصَ المَرْءُ على حُسْنِ مَنْطقه ، ورَشَاقَة لَفْظه ، وجودَة عباراته ؛ وإنّما المقصودُ ألاّ يُغْرِقَ في التّكلُّف ، فيتعدّى حُدُودَ الذَّوْقِ ، وإلاّ فإنَّ حُسْنَ المَنْطِق ، وروعةَ التّعبيرِ من مظاهر المروءة الصّادقة ، ومن أعظم الأسبابِ الدّاعية لقَبُولِ الحقِّ ، بل هذا هو السِّحْرُ الحلالُ ، قالَ عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - لرجلٍ سأله حاجةً ، فأحسن المسألةَ ، فأعجبه قولُه : «هذا - والله - السِّحْرُ الحلالُ » (٢) .

وقال ابنُ الرُّوميّ - وأَحْسَنَ - :

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلالُ ، لَوْ انَّهَا ... لَمْ تَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إنْ طَالَ لَمْ يُمْلِلْ ، وإنْ هي أَوْجزَتْ ... وَدَّ المُحَدَّثُ أنّهَا لَمْ تُوجِزِ
شَرَكُ العُقُوْلِ ونزهَةٌ مَا مِثْلُهَا ... للسَّامِعِيْنَ، وعقلة المستوفِزِ
دررٌ تَعِيشُ الآذانُ في نَغَمَاتِهَا ... بمطرزٍ عَذْبٍ وغَيرِ مطرّزِ (٣)

وقال إبراهيمُ بْنُ العيَّاش :

إذا مَا الفكْرُ ولّدَ حُسْنَ لَفْظ ... وأَسْلَمَهُ الوُجُودُ إلى العيَانِ
وَوَشَاهُ (٤) فَنَمْنَمَهُ جَوَّادٌ ... فَصِيحٌ في المَقَالِ بلا لسَانِ
تَرَى حُلَلَ البَيَانِ مُنَشَّرَاتٍ ... تَجَلَّى بينهَا صُوَرُ المَعَانِي

(١) « فيض القدير » للمنّاوي (٢/٢٨٣) .
(٢) «كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكريّ (ص٦٧) .
(٣) « الأمالي » (١/١١٥)، و« نهاية الأدب » (٢/٧١)، و« أدب المجالس » لابن عبد البرّ (ص٤٦) .
(٤) وَشَاهُ : نقشه وزيّنه.

قال قُدامةُ بنُ جعْفرٍ : « ومن الأوصاف التي إنْ كانت في الخطيب سُمِّي سديداً ، وكانَ العَيْبُ معها بعيداً – أنْ يكونَ في جميعِ ألفاظه ومعانيه جارياً على سَجيَّته، غيْرَ مُسْتَكْرِه لطبيعته ، ولا مُتكلّفٍ ما ليس في وُسْعه ، فإنَّ التكلُّفَ إذا ظهرَ في الكلام هجَّنه ، وقبَّح موقعَهُ ، وحسْبُكَ منْ ذمِّ التكلُّف أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – أمر رسولَه – ﷺ – بالتَّبرُّؤ منه ، فقال : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [ص : ٨٦] » (١) .

والتعبيرُ يَدْخُلُ في الإنشاءِ ، وَحَسْبُكَ – أخي الخطيبَ – منه :

١- التفنُّن .

٢- متانةُ الأسلوبِ .

٣- الاقتباسُ .



(١) « نقد النَّثر » (ص١٠٤ – ١٠٥) .

٩ - الأسْلُوبُ

لا شكَّ أنَّ الأُسلوبَ البلاغيَّ بَحْرٌ لا ساحلَ له ، ومُحيطٌ بعيدُ الأعماقِ ، ولنْ أتحدَّثَ إلاَّ عن الأوصافِ التي هي خاصَّةٌ بالأسلوبِ الخطابيِّ .

والأسلوبُ الخَطَابيُّ: هو أنْ يعمدَ الخطيبُ - بعدَ استحضارِه المعانيَ - إلى الألفاظِ التي يريدُ أداءها بها، فيفرغ المعنى في قالبٍ يُناسبه، فالمعاني الجزْلَةُ لابُدَّ لها من جُمَلٍ وتراكيبَ في غاية الفخامَة والضَّخامة، والمعاني الرَّقيقةُ لابُدَّ لها من ألفاظ تُناسبها رقَّة وسلاسةً؛ ليحصلَ التَّشاكل، والقرآن الكريم أعدلُ شاهدٍ على التَّفنُّنِ في مَتَانة الأسلوب، وحُسْنِ السِّيَاقِ، وعُذُوبة الألفاظ، ودقَّة المعاني، وما تراه عند ذكْر الرَّحمَة والمغفرة، وما استعمل معه من رقيقِ العبارة مع تمَامِ الانسجامِ بين المعاني والألفاظ، وما تراه من جزَالة التراكيبِ عنْدَ ذكْر العذاب على عذوبته في الفهْم، ولَذَاذَته في السَّمْع، فمثالُ الأول: كقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحجْر : ٤٩]

فتأمَّل هذه الآية المتضمِّنة لرجاء عَفْو الله ورحمته ، كيف اشتملت على رقيقِ الألفاظ ، ولطيفِ المعاني المُشوِّقَةِ للتَّشويق ؟! .

ومثال الثاني : كقوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجْر : ٥٠]

وَتأَمَّلْ - أيضًا - هذه الآيةَ الكريمةَ المتضمِّنةَ ذكْرَ العذاب ، تجدْ ألفاظَهما - على ما فيها من الضَّخامةِ الملائمةِ لجزالةِ المعنى المقصود منها - سَهْلَةً مُسْتَعْذَبَةً .

كلامٌ كَسَتْهُ بَهْجَةُ الحُسْنِ رَوْنَقًا هوَ السِّحْرُ، لا بَلْ جَلَّ قَدْرًا عَنِ السِّحْرِ!

وقال محمد إقبال:

حَـديثُ الرُّوحِ للأَرْواحِ يَسْـري ... وتُدْركُـهُ القُلُوبُ بلاَ عَنَاء
هتَفت به فَطَار بلا جَنَاحٍ ... وَشَقَّ أَنينُهُ صَدْرَ الفَضَاء
ومَعْدنُهُ رُخَامِيٌّ ، ولَكِنْ ... سَرَتْ في لَفْظه لُغَةُ السَّمَاء

وها هنا فائدة في بيان جزل الألفاظ ورقيقها من غير تعريف، ذكرها ابن الأثير في «المثل السائر» قال – رحمه الله –: «اعلمْ أَنَّ الألفاظَ تَجْري مِنَ السَّمْعِ مَجْرَى الأَشْخَاصِ مِنَ البَصَرِ، فالألفاظُ الجَزْلَة تتخيَّلُ في السَّمْعِ كأشخاصٍ عليها مهابةٌ ووَقَارٌ، والألفاظُ الرَّقيقةُ تتخيَّلُ كأشخاصٍ ذوي دَمَاثة، ولين أخلاقٍ، ولطافة مزاجٍ؛ ولذا تَرَى ألفاظَ أبي تمَّامٍ وكأنَّها رجالٌ قد رَكبوا خُيُولَهم، واسْتَلأَمُوا[1] سلاحَهُم، وتأهَّبوا للطِّراد، وترى ألفاظَ البُحْتُريِّ وكأنَّها نساءٌ حسَانٌ، عَلَيْهِنَّ غَلائلُ[2] مُصبَّغاتٌ، وقد تَحلَّيْنَ بأصناف الحُلِيِّ، وإذا أمعنتَ نظرَكَ فيما ذكرتُه هاهنا، وجدتني قد دللتُك على الطريق، وضربتُ لك أمثالاً مناسبةً».

واعلم– أخي بارك الله فيك – أنَّ لكُلِّ مقامٍ نوعًا من الأساليب ، ولكُلِّ قومٍ خطابًا ، فالعامَّةُ يُخاطبون بعبارةٍ ساذجة[3] ومُؤثِّرة ، والعلماءُ بعبارةٍ منتقاةٍ ودقيقةٍ ، والشبابُ بعبارةٍ بليغةٍ متألِّقةٍ ، والشُّيوخُ بعبارةٍ رقيقةٍ ولطيفةٍ .

لَهَا أَحَاديثُ منْ ذكْرَاكَ تَشْغَلُها ... عَن الطَّعَامِ ، وتُلْهِيهَا عَن الزَّاد
لَهَا بوجْهكَ نورٌ تَسْتَضيءُ به ... ومِنْ حَديثكَ في أَعْقَابهَا حَادي
إذَا تَشَكَّتْ كَلالَ[4] السَّيْرِ، أَسْعفَهَا ... شَوْقُ القُدُومِ ، فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَاد

---

(١) **اسْتَلأَمَ** : لبس اللأمة ، وهي درْعٌ يُلبس في الحرب ، جمعها لُؤَمٌ .
(٢) **غلائل** : جمع غلالة ، وهي الشعار الذي يُلْبس تحت الثوب الظَّاهر .
(٣) **ساذَجة** : أي غيرَ بليغة .
(٤) **الكَلالُ** : الإعياء والتَّعب .

١٠- الشِّعْرُ

لا شكَّ أنَّ خطابَ النَّاسِ – ولا سيَّما الشَّبَابُ – قائمٌ على حقيقة نفسيَّة، تُؤكِّدُ مَيلَهُم إلى حُبِّ الجمال ، والشِّعْرُ مُشْتَمِلٌ على الجمالِ الرَّائعِ الذي يُحَرِّكُ المشاعرَ ، والمعاني اللَّطيفةِ التي تهزُّ أوتارَ القلوبِ ، وتَمُدُّ الخَطَابَةَ بمناحي التأثير .

قال عُمَرُ بْنُ الوَرْدِيُّ :

انْظمِ الشِّعْرَ ، ولازم مَذْهَبِي ... في اطِّرَاحِ الرِّفْدِ[1] ، فالدُّنْيَا أَقَلّ
فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الفَضْلِ ، ومَا ... أَحْسَنَ الشِّعْرَ ، إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ!

وليس هناك ما يمنع من استنشاد الشِّعْرِ في المسجد، وفي الخُطْبة –أيضًا–.

فعن عبد الرحمن بن عَوْفٍ أنَّه سمع حَسَّانَ بْنَ ثابتٍ يَسْتَشْهِدُ أبا هريرة : أَنْشُدُكَ اللهَ ، هل سمعت النَّبِيَّ – ﷺ – يقول : « **يا حَسَّانُ ، أَجِبْ عن رسولِ الله – ﷺ –، اللَّهمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ**» ؟. قال أبو هريرةَ: «نَعَمْ» [2] .

قال الحافظ ابْنُ حجرٍ :

« وفي التِّرمذيِّ مِنْ طريقِ أبي الزِّنَاد ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشةَ قالتْ : «كان رسولُ الله – ﷺ – ينصبُ لحسَّانَ مِنبَرًا في المَسْجِدِ ، فيقومُ عليه ، ويَهْجُو الكُفَّارَ » [3] .

وذكر المَازريُّ في « الأطراف » أنَّ البُخَاريَّ أخرجه تعليقًا ، وأتمَّ منه ، لكن

(١) **الرِّفْد** : العطاء والصِّلة .
(٢) أخرجه البخاريُّ في الصَّلاة (٤٥٣) .
(٣) جامع الترمذي ، كتاب الأدب (٢٨٤٦) .

لم أره فيه . قال ابن بطَّال : ليس في حديث الباب أنَّ حسَّانَ أنشدَ شعْرًا في المسجد بحَضْرَةِ النَّبيِّ - ﷺ - ، لكن رواية البخاريِّ في بَدْءِ الخَلْقِ (١) من طريق سعيد تدلُّ على أنَّ قولَهُ - ﷺ - لحسَّان : « **أجِبْ عنِّي** » كان في المسجد، وأنَّهُ قَدْ أنشدَ فيه ، فأجابَ المشركين ، وقال غيره يحتمل أنَّ البخاريَّ أراد أنَّ الشِّعْرَ المشتمَل على الحقِّ حقٌّ بدليل دعاء النبيِّ - ﷺ - لحسَّانَ عَلَى شعْرِه ، وإذا كان حَقًّا جاز في المسجد كسائر الكلام الحقِّ ، ولا يمنعُ منه كما يمنع من غيره من الكلامِ الخبيث ، واللَّغْو السَّاقط . قلتُ : والأوَّلُ أليقُ بترجمة البخاريِّ ، وبذلك جزَم المازريُّ ، وقال : إنَّما اختصر البخاريُّ القصَّةَ لاستشهارها ، ولكونه ذكرها في موضعٍ آخرَ ، وأمَّا ما رواه ابن خُزَيْمَةَ في صحيحه ، والتِّرمذيُّ وحسَّنه من طريق عَمْرو بْن شُعَيبٍ عن أبيه عن جدِّه قال : « نَهَى رسولُ الله - ﷺ - عَنْ تَنَاشُدِ الأشعارِ في المسجد » ، وإسناده صحيحٌ إلى عَمْرٍو ، فَمَنْ يُصَحِّحُ نسخه يصحححه ، وفي المعنى عدَّة أحاديث، لكن في أسانيدها مقالٌ ، فالجمعُ بيْنَهَا وبَيْنَ أحاديث الباب ، أنْ يُحْمَلَ النَّهْيُ على تَنَاشُدِ أشعارِ الجاهلين والمُبْطلين ، والمأذون فيه مَا سَلِمَ مِنْ ذلك » (٢) .

فتبين لك - أخي في الله - أنَّهُ لا بأسَ من اسْتنشاد الشعر في خطبَةِ الجمعة، وقد سُئلَ العلاَّمة ابن باز - رحمه الله - هل الاستشهاد ببعضِ الشِّعر في خُطبةِ الجمعة مما يحثُّ على مكارِمِ الأَخْلاقِ والجهاد في سبيلِ الله أمر مشروع ؟

الجواب : لا شكَّ بذلك، يقول النَّبيُّ ﷺ : «**إنَّ من الشِّعْرِ لحكمة**» وكان النَّبيُّ ﷺ يُنشدُ معَ الصَّحابَةِ وهم يبنون المسجد ، يُنشدُ معهم عليه الصلاة والسلام :

(١) «صحيح البخاريِّ» كتاب بَدْءِ الخَلْقِ (٣٢١٢) .
(٢) الفتح (٦٥٢/١) .

والله لولا الله مـــا اهتـــدينا ولا تـصـــــدَّقْنا ولا صلَّـينـا
فـــأنزل سكـينـة علـينـا وثَبِّتْ الأقْـــدامَ إنْ لاقـــيْنا
إن الأولى قـــد بغـــوا علينا إذا أرادوا فــــتـنةً أبَـيْنـا

كان رافعًا بها صوته يقول: «أبينا، أبينا، أبيْنا» كما أنه عليه الصلاة والسلام أنشدهم وهم يحفرون الخندق.

فالمقصود : إنَّ إنشاد الشعر الحق الطَّيِّب في الخطب والمواعظ والمحاضرات وخطب الجُمُعة ولاأعياد لا بأس به ؛ لأنه يُؤثر ويحصل به خير عظيم » [١] .

وكما أنَّ الشِّعْرَ يُحَرِّكُ المشاعرَ ، ويُخاطبُ العواطفَ ، ويتركُ في النَّفْسِ تأثيرًا ، ولكن لا يُستحسنُ الإكثارُ منه في الخُطْبَة ؛ لأنَّ الأصلَ الاقتصارُ على نُصُوصِ الوَحْيَيْنِ الشَّريفين ، ولأنَّه لم يُعْهَدْ في خُطَبِ النبيِّ – ﷺ – ، ولا في خُطَبِ الصَّحابة – الاستشهادُ بالشِّعْرِ ، ولمْ يُعْهَدْ إلا في القرنِ الرَّابعِ ، وقد جَرَى الاستشهادُ مِنْ بَعْدِ القَرْنِ الرَّابعِ وحتى اليوم مِنْ غَيْرِ إنكارٍ فيما نعلم .

رِفْقًا بقَلْبي – يا خطيبُ – فَإِنَّني بَشَرٌ ، وَهَذَا السِّحْرُ يَخْلبُ عَيْني
قَتْلُ المُحِبِّ يَجُوزُ في شَرْعِ الهَوَى لَوْ كَانَ دِينُكَ في الصَّبَابَةِ[٢] دِيْني



(١) جريدة «المدينة» العدد (٩١٧٠) (ص١٢) الثلاثاء ١٤١٢/١٢/٢٢هـ .
(٢) الصَّبابة – بفتح الصَّاد – : شدَّة الحبِّ والولع ، وحرارة الشَّوق ، ورقَّة الهوى .

١١- السَّجْعُ

السَّجْعُ : هو توافُقُ الفاصلتين في الحرف الأخير تشبيهًا له بسَجْعِ الحمامة إذا هدرتْ ، ومَوْطنُه النَّثْرُ ، وقد يجيءُ في الشِّعْر: كقول أبي الطَّيِّب :

فَنَحْنُ فِي جَذَلٍ ، والرُّوْمُ فِي وَجَلٍ والبَرُّ فِي شُغُلٍ ، والبَحْرُ فِي خَجَلِ

وأفضلُ السَّجْعِ ما تساوتْ فِقَرُهُ [١] ، وتُسَكَّنُ الفاصلةُ – دائمًا –[٢] في النَّثْرِ للوقف، ولا بأسَ من إيراد بَعْضِ السَّجْعِ بشروطٍ ، منها :

أ - ألاَّ يظهرَ التَّكلُّفُ له، وإلاَّ ثَقُلَ، وَضَعُفَ تأثيرُهُ :

قال الله – سبحانه وتعالى – :﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [ص : ٨٦] .

وقالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب – رضي الله عنه – : « نُهينا عَنِ التَّكلُّف » [٣] .

وعن المغيرةَ بْنِ شُعْبَةَ – رضي الله عنه – قال: ضَرَبَتْ امرأةٌ ضَرَّتَهَا[٤] بعمود فسطاط، وهي حُبْلَى في بَطْنها فقتلتها، فجعلَ رسولُ الله – ﷺ – ديَةَ المقتولة على عَصَبَةِ القاتلة، وغُرَّةً [٥] لما في بطنها فقال رجلٌ مِنْ عَصَبَةِ القاتلة: كيف نَدي[٦] – يا رسولَ الله – مَنْ لا شَرِبَ، ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَلَّ؟! فمثلَ ذلك يُطل، فقال النَّبيُّ – ﷺ –: «**سجع كسَجْعِ الكُهَّانِ من أجل سجعه**»[٧].

قال النَّوويُّ – يرحمه الله – : « قال العلماءُ : إنمَّا ذمَّ سَجْعَهُ لوجهين: أحدهما – أنَّه عارضَ به حُكْمَ الشَّرْعِ، ورامَ إبطالَهُ ، والثَّاني – أنَّه تكلَّفَهُ.

---

(١) **فقر** : جمع فقرة ، وهي الجملة النَّجْوِيَّة هنا .
(٢) **الفاصلة** : هي الكلمة الأخيرة من كلِّ فقرة.
(٣) رواه البخاري (١٣/٢٢٩) .
(٤) **الضرة** : واحدة الضرائر، وهنَّ زوجات الرجل .
(٥) **غُرَّة** : عبدًا أو أَمَةً .
(٦) **ودى يدى** : أعطى الدِّيَة .
(٧) رواه مسلم (١٦٨١) .

وهذان الوجهان من السَّجْعِ مذمومان .

وأمّا السَّجْعُ الَّذي كانَ النَّبيُّ -ﷺ- يقولُهُ في بَعْضِ الأوقاتِ - وهذا مشهورٌ في الحديثِ - فليس مِنْ هذا ؛ لأنّه لا يُعارِضُ بِهِ حُكْمَ الشَّرْعِ، ولا يتكلَّفُهُ » (١) .

ب - أن يكون قليلاً ؛ لأنه حِلْيَةٌ، ويَكْفي مِنَ القِلادَةِ ما أحاط بالعُنُقِ :

قال ابن الأثير - رحمه الله - : « يَنْبَغي أنْ تكونَ الألفاظُ المَسْجُوعةُ حُلْوَةً حادَّةً طنَّانةً رنَّانةً لا غَثَّةً ولا باردةً ، وأعني بقولي : غَثَّة باردة أنْ يكونَ صاحبُها يصرفُ نَفْسَهُ إلى السَّجْع نفسه من غير نَظَرٍ إلى مفردات الألفاظ المَسْجُوعة ، وما يُشْتَرَطُ لها من الحُسْنِ ، ولا إلى تركيبها ، وما يُشْتَرَطُ له من الحُسْنِ ، وهو في الذي يأتي من الألفاظ المسجوعة كمن ينقشُ أبوابًا من الكَرَاسف (٢)، أو يَنْظِمُ عِقْدًا من الخَزَف (٣) المُلَوَّن ، وهذا مقامٌ تَزِلُّ عنه الأقدامُ ، ولا يستطيعُهُ إلاَّ الواحدُ من أرباب هذا الفنِّ بعدَ الواحد ؛ ومن أجلِ ذلك كانَ أربابُهُ قليلاً ، فإذا صَفَا الكلامُ المَسْجُوعُ من الغَثَاثَة ، فإنَّ وراءَ ذلك مطلوبًا آخرَ ، وهو أنْ يكونَ اللَّفظُ فيه تابعًا للمعنى ، لا أنْ يكونَ المعنى فيه تابعًا للَّفْظ ؛ فإنَّه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُمَوَّهٍ على باطنٍ مُشَوَّهٍ ، ويكون مثلُهُ كَغِمْدٍ (٤) مِنْ ذَهَبٍ على نَصْلٍ (٥) مِنْ خَشَبٍ » (٦) .

وَمَنْطق كَضِيَاءِ الشَّمْسِ ، تَحْسَبُهُ ... مِنْ حُسْنِه سِحْرَ هَارُوتَ وَمَارُوت
يَدبُّ في الجَسْمِ مثلَ البُرْءِ، لَوْ نُظِمَتْ ... أَلْفَاظُهُ قُلْتَ: هَذَا عِقْدُ ياقُوت!

(١) «شرح النَّوويّ على مسلم» (١١/١٩١) .
(٢) **الكراسف** : جمع كُرسف ، وهو القُطْن .
(٣) **الخَزَف** : الطِّين غير المحروق .
(٤) **الغِمْدُ** : غلاف النَّصْلِ، جمعه أغماد.
(٥) **النَّصل** : حديدة السَّيف ، جمعه أنْصُل، ونِصَال .
(٦) « المثل السائر » لابن الأثير .

وقال قُدامَةُ بْنُ جَعْفَر : « ومن أوصاف البلاغة - أيضًا - السَّجْعُ في مَوْضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأنْ يكونَ في بعضِ الكلامِ لا في جميعه؛ فإنَّ السَّجْعَ في الكلامِ كمثلِ القافيةِ في الشِّعْر - وإن كانتْ القافيةُ غير مستغنىً عنها ، والسَّجْعُ مُسْتَغنىً عنه - ، فأمَّا أنْ يلزمَهُ الإنسانُ في جميعِ قوله، ورسائله، وخُطَبِه، ومناقلاته - فذلك جَهْلٌ من فاعله ، وَعِيٌّ من قائله».

إلى أن قال : « ولو كانَ لزومُ السَّجْعِ في القولِ ، والإغرابُ فيه وفي اللَّفْظ هو البلاغة - لكان اللهُ - عزَّ وجلَّ - أوْلى باستعمالها في كلامه الذي هو أفضلُ الكلامِ ، ولكان النَّبيُّ - ﷺ - ، والأئمَّةُ المهديُّون قد استعملوها ، ولَزِمُوا سبيلَهما ، وسَلَكُوا طريقَهُمَا ، فأمَّا ولَسْنا واجدين فيما في أيدينا من كلامهم استعمالَ السَّجْعِ والغريبِ إلا في المواضعِ اليسيرةِ ، فهم أوْلى بأنْ يُقْتَدى بهم، ويُحْتَذَى بمنهاجهم ممَّن قد نَبَتَ في هذا الوقتَ منْ هؤلاء الَّذين ليس معهم من البلاغة إلاَّ ادِّعاؤُها، ولا من الخَطَابة إلا التَّحلِّي باسمها » [١].

فتبيَّن لك - أخي الخطيب - من خلال ما سَبَقَ أنَّ الإكثارَ منَ السَّجْعِ في أثناء الخُطْبَة هو خلافُ هَدْيِ السَّلَف المُقْتَدَى بهم ، وممَّا يُكْرَهُ منَ السَّجْعِ السَّجْعُ في الدُّعاء ، فقد أوصى عَبْدُ الله بْنُ عبَّاسٍ مَوْلاهُ عكْرِمَةَ وَصيَّةً ، قال في آخرها : « وانْظُرِ السَّجْعَ منَ الدُّعاء فَاجْتَنبْهُ ؛ فإنِّي عَهِدْتُ رسولَ الله -ﷺ- وأصحابَهُ لا يفعلون إلاَّ ذلكَ الاجتنابَ » [٢] .

قال الحافظ ابْنُ حجرٍ : «قال الغزاليُّ : المكروهُ من السَّجْعِ هو المُتَكَلَّفُ ؛ لأنَّه لا يُلائمُ الضَّراعةَ والذِّلَّةَ ، وإلاَّ ففي الأدعيةِ المأثورةِ كلماتٌ متوازيةٌ ، لكنَّها غيرُ مُتكلَّفَةٍ » [٣] .

---

(١) « نَقْدُ النَّثْر » لقدامة بن جعفر (ص١٠٧) .
(٢) رواه البخاريُّ في الدَّعوات (٦٣٣٧) .
(٣) «فتح الباري» (١١/١٣٩) .

١٢ - الأَهْوَاءُ والمُيُولُ

لابُدَّ للخطيب أنْ يُوَجِّهَ خطَابَهُ نَحْوَ العَقْلِ والوِجْدَان ، فيُخاطبُ العقلَ بالدلائلِ والبراهينَ ، ويُخاطبُ الوِجْدَانَ باستدراجٍ لَبِقٍ ، وكلماتٍ ساحرةٍ ، وصوتٍ عَذْبٍ .

قالَ أحدُ علماء الاجتماع : « إنَّ الخطيبَ إذا خَاطَبَ العاطفةَ أرضى ثمانين في المائة من السَّامعين ، وأثار اهتمامَهُم » .

وقال صاحب كتاب « روح الاجتماع » : « إنَّ البراهينَ والأدلَّةَ لا تأخذُ من نفوسِ الجماعات ؛ ولهذا كانَ الخُطَبَاء الذين لا يعرفونَ كيفَ تتأثرُ ، إنَّما يُخاطبون شُعُورَها دُونَ العَقْلِ ؛ لأنَّه لا سُلْطَانَ لقواعد المَنْطقِ عليها ، فلأجلِ إقناعِ الجماعة ينبغي الوقوفُ أوَّلاً على المشاعرِ القائمةَ بها ، والتَّظاهُرُ بموافقتها فيها ، ثُمَّ يُحَاولُ الخطيبُ تعديلَها بموازناتٍ صغيرةٍ عاديَّة ، تُشَخِّصُ أمَامَها صوراً مؤثِّرةً ، وينبغي أنْ يكونَ قادراً على الرُّجوعِ القَهْقَرى ، متى وجد المُقْتَضَى ، وأنْ يَغْرِسَ في كُلِّ لحْظَةٍ أثرَ كلامِهِ في نفُوسِ السَّامعين ؛ حتى يُغَيِّرَ منه كُلَّما مسَّت الحاجة » .

وهذه الضَّرورةُ التي تُلْجِئُ الخطيبَ إلى سُرعة تغيير الكلام بحَسَبِ الأثَرِ الحاصلِ في نَفْسِ السَّامعِ - هي التي تدلُّنا على ضَعْفِ الخَطَابَة بالكَلامِ المُحضَّر مِنْ قَبْلُ ؛ لأنَّ الخطيبَ يتَّبعُ في هذا الحالة سلسلة أفكاره ، لا حَرَكَةَ فكْرِ سامعيه ، فلا يكونُ لكلامه أقلُّ تأثيرٍ فيهم ، أمَّا المناطقةُ فَلأنَّهُم تَعَوَّدوا الإقناعَ بالأدلَّة المُسَلْسَلَة الدَّامغَة ؛ لا يمكنهم الخروجَ عَنْ عَاداتهم هذه إذا خاطبوا الجماعات ؛ لذلك يُدْهشُهم - على الدَّوَام - عدمُ تأثيرِ استدلالهم .

ومن هنا تَعْلَم أهميَّةَ العَاطفةِ ، وأنَّها جهازُ الاستقبالِ ، وبيْتُ القَصيدِ في

التأثير الخَطَابيّ ، وقد ثَبَتَ - علميّاً - أنّ الإنسانَ يَسْأَمُ الدّلائلَ العَقْليّةَ والنّقْليّةَ - ولاسيّما إذا كانتْ جافّةً وعاريةً من العاطفةِ - ، لكنّه لا يَسْأَمُ الدّلائلَ العاطفيّةَ ولا يَملُّها .

وهنا فوائدُ لإثارة الأهواء والميولِ ، نُجْمِلُها فيما يأتي :

أ - اعتقاد الخَطيبُ بصحّة ما يدعو إليه :

وذلك لأنّ قوّةَ الاعتقاد تُكْسبُ الكلامَ حرارةً ، والصّوتَ رنّاتٍ مُؤَثّرةً ، والألفاظَ قوّةً ، والمعانيَ رُوحًا .

قال أحدُ علماء الاجتماع : « إنّ إيمانَ الخطيب كحبالِ الجاذبية التي تَجْذبُ إليه الجُمْهُورَ ، وتُوثق عُرَا التّأثير بيْنَهُما ، فأيُّ شكٍّ أو ضَعْفٍ في إيمانه يقطعُ تلكَ الحبالَ ، فَيَنْفضُّ الجُمْهُورُ مِنْ حَوْلِه » .

وقال صاحب كتاب « روح الاجتماع » في وصف الخطيب النّاجح:

« أنْ يكونَ مَسْحُوراً بالفكْرةِ التي صَارَ إليها ، حتّى استولَتْ على نَفْسهِ استيلاءً لا يرى معه إلا ما كانَ منها ، وأنّ كُلَّ ما خالفها وَهْمٌ باطلٌ » .

نَحْنُ الّذينَ إذا دُعُــوا لصَــلاتِهمْ والحَرْبُ تَسْقي الأَرْضَ جَامًا أَحْمَرا
جَعَلُوا الوُجوهَ إِلَى الحجَازِ ، وكَبّروا في مَسْمَعِ الكَوْنِ العظيمِ ، وكَبّرَا!

ب - المُشَارَكة الوجْدانيّة :

قال أحدُ عُلَمَاء النّفْس في بيانها : « إنّها الحَالَةُ الانفعاليّةُ أو الوجْدانيّةُ التي تكونُ عندَ الإنسانِ ، إذا وجد إنسانًا آخرَ مُتأثّرًا ، فتجعلُه يَشْعُرُ بنفسِ شُعُورِه، كما لو انتقلَ هذا الشُّعورُ بطريق العدْوَى » .

فيَجبُ على الخطيبِ أنْ يُشاركَ الجَمَاعَةَ أَفْرَاحَهَا وأَتْرَاحَهَا [1] ، فيفرح

---

(١) **أتراح** : جَمْعُ تَرَح ، وهو الحُزْن .

لفرحها ، ويحزن لحزنها ؛ فالإحساسُ المُشْتَرَكُ يجعلُه قادرًا على إثارةِ ميولِها ، وإصابةِ أهوائِها ، ودَفْعِها نَحْوَ المُثُلِ العُلَى .

فإذا كانتْ تعتقدُ اعتقادًا باطلاً ، فلا يُهاجمها فيما تألَفُ دُفْعَةً واحدةً ، بل يُمَهِّد لما يرى ، حتى إذا واتته الفُرْصَةُ ، هَجَمَ عليها بفكْرَتِه ، وبيَّن لها المعتقدَ الصَّحيحَ الذي يجبُ أنْ تكونَ عليه الجماعةُ .

دَعَانِي وَاعِظِي لِلحَقِّ قُدْمًا   وَقَالَ: أَلاَ تَتُوبُ عَنِ الْغَوَانِي (١) ؟!
وَقَالَ بِرَأْفَةٍ : وَجَدْتُ طَرِيقًا   إلى القَلْبِ المُعَنَّى(٢) بِالأَمَانِي
أَجَابَ القَلْبُ دَاعِيَهُ ، فَأَحْيَا   بِهَا جَسَدًا ضَعِيفًا ، كَانَ وَانِي(٣)
فَحَمْدًا لِلَّذِي أَعْطَى نَعِيمًا   وَحَمْدًا خَالِقِي، يَا مَنْ هَدَانِي

جـ - اللَّذَّة والألَم :

الخطيبُ اللَّبِقُ هو الذي يستخدمُ آمالَ الأمَّةَ وأمانيَها في إثارة أهواءِ السَّامعين ، ومتى تَعَمَّقَ الخطيبُ في دراسةِ لَذَّةِ الجماعةِ وآلامِها ، عَرَفَ من أيِّ طريقٍ يَطْرُقُ حِسَّها ، فيصلُ إلى وِجْدَانِها .

قال أحَدُ السَّلف : « إنَّ للقلوب شَهَوَاتٍ ، وإقبالاً ، وإدبارًا ، فَأْتُوها مِنْ جانبِ شَهَوَاتِهَا وإقبالِها ؛ فإنَّ القَلْبَ إذا أُكْرِهَ عَمِيَ » .

د - الغرائز :

عرَّف عُلَماءُ النَّفْسِ الغريزةَ بأنَّها : مَيْلٌ فِطْرِيٌّ في النَّفْسِ ، يَدْفَعُ الإنسانَ لأنْ يَسْلُكَ مَسْلَكًا خاصًّا » .

---

(١) **الغَوَاني** : جمعُ غانية ، وهي الَّتي استغنتْ بحسنها عن الزِّينة والحُليّ .
(٢) **المُعَنَّى** : المتعب الحزين ، والمكلَّف ما يشقُّ عليه، مأخوذ من عنى عناءً.
(٣) **واني** : ضعيف .

فهي سُلوكٌ فِطْريٌّ يكونُ مِنْ غَيْرِ خِبْرةٍ سابقةٍ ، ويرمي إلى ما فيه مصلحةَ الشَّخْصِ أو الجِنْسِ .

والمُيولِ الغَرِيزِيَّةَ بأنَّها : هي المُسَمَّاةُ بالأَهْوَاءِ ، وتنقسمُ إلى قسمين :

١ - أهواء النَّفْسِ الشَّهْوِيَّة .

مثل : المحبَّة ، والبُغْضِ ، والرَّغْبَة ، والنُّفُورِ ، والفرَحِ ، والحُزْنِ .

٢ - أهواء النَّفْسِ الغضبيَّة .

مثل : الرَّجاءِ ، والقُنُوطِ ، والشَّجَاعَة ، والخَوْفِ ، والحِلْمِ ، والغَضَبِ .

فتحريكُ عاطفةِ المحبَّةِ ببيانِ مَحَاسِنِ المَحْبُوبِ ، وذِكْرِ أعمالِه الجَليلة ، وضِدُّ المحبَّةِ البُغْضُ .

ويكونُ تحريكُ الرَّغْبَة في النُّفوسِ بتعظيمِ المُرَغَّب فيه ، وتزيينه في عُيُونِ السَّامعين ، كالذي يُرَغِّبُ في العِلْمِ لابُدَّ له من بيان فوائده ، وهكذا الخطيبُ في مقامِ التَّرغيبِ عليه أنْ يسلكَ طريقَ المُقَابَلَة بين الأمرِ المرغوبِ فيه والمَضَارِّ الناتجة عن إهماله ، وضدُّ الرَّغْبَةِ النُّفورُ .

وتحريكُ عاطفةِ الفرَحِ بذكْرِ النِّعَمِ، ونتائجِهَا الحَسَنَة، والتَّحْذيرِ من كُفْرَانِ النِّعَم.

وتحريكُ عاطفةِ الحُزْنِ بذكْرِ هَوْلِ الخَطْبِ ، وعِظَمِ المُصَابِ ، وتعديدِ مزَايا المفْقُودِ ، وشدَّةِ المحْنَة في نَحْوِ قَتْلٍ إنْ وَقَعَ ، أو جرائمَ إنْ حَصَلَتْ ، أو مَوْتِ عظيمٍ ، وهلُمَّ جَرّاً ، مع ظُهُورِ مَخَايلِ [١] الانفعالِ في قَوْلِه ، وملامحِ وَجْهِهِ ؛ حتَّى ينتقلَ تأثيرُهُ إلى قُلُوبِ السَّامعين .

وتحريكُ عاطفَةِ الرَّجاءِ بوصفِ عِظَمِ الخَيْرِ المُبْتَغَى ؛ كي يُحَبِّبَهُ إلى النُّفوسِ، وأنْ يُبَيِّنَ أنَّ الأَمْرَ المَرْجُوَّ ليس عزيزَ المَطْلَبِ ، ولا بعيدَ المَنَالِ لتوافرِ

---

(١) المَخَايِلُ : العلامات .

الأسباب الصَّادقة والمشروعة المُؤدِّية إلى إدراكه : كالإيمان، والأعمال الصَّالحة .

وتحريكُ عاطفة القُنوط أَنْ يُبَيِّنَ لهم أنَّ الأَمْرَ الذي يتطلَّعونَ إليه بعيدُ المَنَالِ، مُعْجِزُ الدَّرْك ، تَحُولُ دُونَهُ مخاطرُ ومشاقٌّ .

وتحريكُ عاطفة الشَّجاعَة في ذِكْرِ الثِّقَة بوَعْد الله .

وتحريكُ عاطفة الخَوْف أَنْ يُرَهِّبَ السَّامعين بانقضاء الأَعْمَارِ على أَسْوَإِ الأحوال ، إنْ هُمْ تَمَادَوْا ، واستمرُّوا على ما هم عليه من العِصْيَانِ ، ولم ينتبهوا من غَفْلَتِهِمْ .

وتحريكُ عاطفة الغَضَبِ بذِكْرِ الإهانة التي لحقَتْهُ ، أو لحقَتْ بالمسلمين ، وأنَّ ذلك لا يليقُ السُّكوتُ عليه وما إلى هذا ، مع بيانِ ضرورةِ التَّشفِّي بالانتقامِ من الظَّالمِ ؛ حتَّى لا يتمادَى في باطله وَغَيِّه .

وتحريكُ عاطفة الحِلْم يكونُ بأمورٍ ، منها الإقرارُ بالذَّنْب مع ذِكْرِ الحِلْمِ وفَضْلِ كَظْمِ الغَيْظ ، ووَصْفِ ما يَجْنيه الحَليمُ مِنْ حُسْنِ الأُحْدُوثَة ، وهَلُمَّ جَرًّا.

وممَّا يُفيدُ في تحريكِ الأهواء وإثارة العواطف على الإطلاق – بعد تَمَامِ الإحاطة بأطراف الموضوعِ – أن يكونَ الخطيبُ عندَ التَّأْدية متأثِّرًا بما يقولُ تأثُّرًا صحيحًا باديًا ذلك في لَهْجته ، وملامحِ وَجْهه ؛ فالغايةُ مِن الخَطَابَة أنْ ينقلَ ما في قلبه منَ الإحساسات إلى قُلُوب السَّامعين ، وبذلك يبلغُ منها ما يُريدُ ، وهذا معنى قولِ أحد الأدباء : إنَّ الأهواءَ والعواطفَ هي الخطيبُ في الجماهيرِ ، وقوله: السِّرُّ كُلُّ السِّرِّ أنْ يكونَ الإنسانُ مُلْتَهبًا بالعواطف (١) .

وأخيرًا هذه بعضُ الأغْرَاضِ بالإجمالِ ، فهي مُجَرَّدُ صُوَرٍ ، وما لمْ نَذْكُرْهُ يُقَاسُ على ما ذكرناه .

---

(١) انظر « الخَطَابة » (ص٧٩) .

هـ - بواعثُ الانتباه:

هي الأمورُ التي تَبْعَثُ الانتباهَ القَسريَّ ، وتَجْذِبُ السَّامعينَ إلى الخطيب ، والإنصاتِ لكلامه ، وتُوجِّهُهُمْ إلى فِكْرَتِه ، من شَأْنها أنْ تبعثَ ميولَهُم إليه ، وتلفتُهُمْ عمَّا سِواهُ ، وهذه الأمورُ كثيرةٌ ، منها :

١ ـ **الجِدَّةُ** : أنْ ينوِّعَ الخطيبُ أُسْلُوبَهُ مِنَ الاستفهامِ إلى التقريرِ إلى الطَّلَبِ وهكذا ، وهي تُكْسِبُ الكلامَ طلاوةً ورونقًا .

٢ - **الغَرَابَةُ**: وهي الإكثارُ منْ ضَرْبِ الأَمْثلة الغَريبة ، والتَّشبيهات البديعة.

٣ - **التَّغْييرُ** : وهو أنْ يُغَيِّرَ الخطيبُ من صَوْتِه ؛ ليكونَ فيه تنشيطٌ ، وإثارةٌ للاهتمام .

فَـالطَّيْـرُ يُرْسِلُ للعُـشَّـاقِ أُغْنيـةً ... والغُصْنُ يَعْزِفُ ، والأَرْوَاحُ في طَرَبِ
في كُلِّ يومٍ لَنَا عِـيْـدٌ بأَرْضِـهِـم ... فَالسِّحْرُ والشِّعْرُ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

و - التِّكرار والتَّوكيد:

يا لله كم للتِّكرار والتَّوكيد من تأثيرٍ في النُّفوسِ ، وجاذبيَّةٍ للعُقُولِ ، فهما قوَّةٌ إقْناعيَّةٌ ، يُولِّدان في الجماعة القناعةَ الوِجْدَانيَّةَ ! .

وقد كان النَّبيُّ - ﷺ - « إذَا تَكلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثلاثًا ؛ حتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ» (١) .

قال أبو الطَّيِّب المتنبِّي :

فَـهُـوَ المُشَـيَّعُ بالمَسَـامِعِ ، إنْ مَـضَى ... وَهُوَ المُضَـاعَفُ حُـسْنُهُ ، إنْ كُـرِّرَا

والتِّكرارُ والتَّوكيدُ يتَّكئ عليه عُلَماءُ النَّفْسِ في عمليَّة غسلِ الأَدْمغة ، ومِمَّن استخدمَ التِّكرارَ والتَّوكيدَ باحترافٍ بَعْضُ المُسْتشرِقينَ ، حتى إنَّ بعضَهُم قد يردِّدُ

---

(١) رواه البخاريُّ في العلم « باب مَنْ أعاد الحديثَ ثلاثًا ؛ ليُفْهَمَ عَنْهُ » (٩٤) ، و(٩٥) ، وفي الاستئذان (٦٢٤٤) ، والتِّرمذيُّ في المناقب (٣٦٤٠) عن أنس .

شُبْهَتَهُ في الكتاب الواحد عشرات المرّات بأساليبَ مختلفةٍ ، وكذلك ما تفعلُهُ وسائلُ الإعلامِ من تكرير المناظر لتحقيقِ أغراضها .

وقد فطنَ لذلك عُلَمَاءُ السَّلَف - قديمًا وحديثًا - ، فكانوا يَنْهَوْنَ عن مجالسة المُبْتَدعَة ، وأصحاب الشُّبُهَاتَ ؛ لأنَّ سبيلَهُمْ قائمٌ على التَّكْرَار والتَّوْكيد، وعلى التَّلْبيسِ والتَّدْليس، ولعلمهم أنه متَّى تكرَّر الكلام على السَّمعِ تقرر في القلب.

قال مفضلُ بْنُ مُهَلْهِلٍ :

« لو كان صاحبُ البدعة - إذا جلستَ إليه - يُحَدِّثُكَ ببدعته ؛ حَذِرْتَهُ وفَرَرْتَ منه ، ولكنَّه يُحَدِّثُك بأَحاديث السُّنَّة في بَدْءِ مَجْلسه ، ثُمَّ يُدْخِلُ عليك بِدْعَتَهُ ، فلعلَّها تلزم قَلْبَكَ ، فمتى تخرجُ من قلبك ؟! » (١) .

وقال الحَسَنُ البصْرِيُّ :

« لا تُمَكِّنْ أُذُنَيْكَ مِنْ صاحبِ هَوَىً ؛ فيمرضَ قلبك » (٢) .

وقال الأوزاعيُّ :

« لا تُمكِّنوا صاحبَ بدعةٍ من جِدَالٍ؛ فَيُورثَ قُلُوبَكُم من فتنته ارتيابًا »(٣) .

وعن سعيد بْنِ عامرٍ قال : سمعتُ جدَّتي أسماءَ تُحَدِّثُ ، قالت : «دخل رجلانِ على مُحَمَّدِ بْنِ سيرينَ من أهلِ الأَهواء ، فقالا : يا أبا بكرٍ ، أُنحَدِّثُك بحديثٍ ؟ . قال : لا . قالا : فنقرأُ عليك آيةً من كتابِ الله ؟ . قال : لا ، لَتَقومانِّ عنِّي ، أو لأَقومَنَّ » (٤) .

(١) « الإبانة في أصول الدِّيانة » لابن بطَّة (ص٣٩٤) .
(٢) المرجع السابق (٣٩٦) ، و«البدع والنهي عنها» لابن وضَّاح (ص٥٠) .
(٣) « البدع والنهي عنها » لابن وضَّاح (ص٥٣) .
(٤) رواه الدَّارميُّ (١/١٠٩) ، واللالكائيُّ (٢٤٢) .

وقالَ بَعْضُ أئمَّة السَّلَف : « مَنْ أَصْغَى سَمْعَهُ إلى صاحبِ بدعةٍ – وهو يعلمُ – نُزِعتْ منه العِصْمَةُ ، ووُكِلَ إلى نَفْسِه » (١) .

وقال سُفْيَانُ الثَّوريُّ :

« مَنْ سَمِعَ ببدعةٍ، فلا يَحْكِها لجُلَسَائِه؛ لا يُلْقِها في قُلُوبِهم »(٢) (٣) .

أورده الذَّهبيُّ (٤) ، وعقَّبَ عليه بقوله :

« أكثرُ أئمَّةِ السَّلَفِ على هذا التحذيرِ ، يَرَوْنَ أنَّ القُلُوبَ ضعيفةٌ ، والشُّبَهَ خطَّافةٌ » .

وقال صاحب كتاب « روح الاجتماع » : « للتَّكرارِ تأثيرٌ كبيرٌ في عُقُولِ المستنيرين ، وتأثيرٌ أكبرُ في عُقُول الجماعات من بابِ أَوْلى ؛ والسَّببُ في ذلك كَوْنُ المُكرَّر يَنْطَبِعُ في تجاويف المَلَكَات اللاَّشعوريَّة التي تختمرُ فيها أسبابُ أفعالِ الإنسانِ ، فإذا انقضى شَطْرٌ من الزَّمنِ ، ونَسِيَ الواحدُ منَّا التَّكرار ، انتهى بتصديقِ المُكرَّر ، وهذا هو السِّرُّ في تأثيرِ الإعلانات العجيب ، يقرأُ الواحدُ مائةَ مرَّةٍ أنَّ أحسنَ الحَلْوَى مِنْ صُنْعِ فُلانٍ ، فَيُخَيَّلُ إليه – من التَّكرار – أنَّه سَمِعَ ذلك من مصادرَ شتَّى ، وينتهي باعتقادِ صِحَّةِ الخَبَرِ » .

وقال صاحب كتاب « الآراء والمعتقدات » : « إنَّ التَّوكيدَ والتَّكرارَ عاملانِ قويَّانِ في تكوينِ الآراءِ وانتشارِها ، وإليهما تستندُ التَّربيةُ في كثيرٍ من المسائلِ ، وبهما يستعينُ رجالُ السِّياسةِ والزُّعماءُ كُلَّ يومٍ في خُطَبِهم ، ولا

(١) « سير أعلام النبلاء » للذهبيِّ (٧/٢٦١) عن سفيان الثَّوريِّ ، وفي « شرح أصول الاعتقاد » (٢٥٢) عن محمد بن النضر الحارثي ، وكذا في « تلبيس إبليس » (ص٤٨) .
(٢) «شرح السنة» للبغوي (١/٢٢٧) ، و« الأمر بالاتباع » للسيوطي (ص٧٤) .
(٣) هذا يدلُّ على أنَّ سلَفَنا الصَّالحَ كان عندهم إلمام بسياسة النفوس ، فكانوا في تعاملهم مع النفسِ البشريَّة – باعتبارهم محلاًّ للتزكية والتصفية ، بفطرتهمَ الرَّبَّانية – قد سبقوا علماءَ النَّفسِ سَبْقاً بعيداً، وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء .
(٤) «سير أعلام النبلاء » (٧/٢٦١) .

يحتاجُ التَّوكيدُ إلى دليلٍ عقليٍّ يدعمُهُ ؛ وإنَّما يقتضي أنْ يكونَ وجيزاً حماسيّاً، ذا وَقْعٍ في النَّفْسِ » .

ومع أنَّ التّكرارَ والتَّوكيدَ يُؤدِّيَان إلى نتيجة واحدةٍ ، ولكُلٍّ مقامٌ خاصٌّ به ، فالتّكرار أوْلى في مقامِ الإطناب ، والتَّوكيد أَوْلى في مقامِ الإيجازِ ، ويجبُ أنْ يُلاحظَ في التّكرارِ أنْ يكونَ بعباراتٍ وأساليبَ مُخْتَلفةٍ ، وأَنْ يكونَ النَّظرُ فيه إلى المعنى من جوانبَ مُتَعَدِّدَة [1]

قـالوا : تُكَرِرُ ، قُلْتُ : أَحْلَى   علـمـاً مَنَ الأَرواحِ أَغْلَى
فَـإِذَا ذَكَـرْتُ مُـحَـمَّـداً   قـال المَلأُ : أَهْلاً وسَـهْـلا .



(١) انظر « الخطابة » (ص٨١) .

١٣- البَدَاهَةُ

البداهةُ: هي الارْتجَالُ والقولُ من غير تفكُّرٍ، وإنْ كانت الإصابةُ -غالبًا- في الرويَّة، وإطالة الفكْرة، كما قالَ عبدُ الله بْنُ واهب الراسي: « دَعُوا الرَّأْيَ حتَّى يَخْتَمِرَ؛ فلا خَيْرَ في الرَّأْي الفطير، والقولِ القضيب [1] » .

وقالَ المنصورُ لكاتبه: « لا تُبْرِمْ أمْرًا حتى تتفكَّرَ؛ فَإنَّ فكْرَةَ العاقلِ مِرْآتُه، تُرِيه حسنَه من قُبْحه » .

وقال ابْنُ الرُّوميّ:

إنَّ الرَّوِيَّةَ نارُ الجِدِّ منضجةٌ ... وللبَداهَةِ نارٌ ذاتُ تَلْويحِ
وقَدْ يُفضِّلُها قومٌ لعاجلها ... لكنَّهُ عاجلٌ يَمْضي مَعَ الرِّيحِ

والارتجالُ قَدْ يحتاجُ إليه الخطيبُ، فقد يُطْلَبُ منه أنْ يَخْطُبَ، ولم يكنْ قَدْ أعدَّ للخُطْبة عُدَّتَهَا، فيكونُ أمَامَ خيارَيْنِ:

الأوَّل – إمَّا أنْ يَرْتَجلَ خُطْبةً تُنَاسبُ المقامَ، والحالَ، والمكانَ، والزَّمانَ.

الثَّاني – وإمَّا أنْ يُلْقِيَ عليهم خُطْبةً، قد سَبَقَ أنْ أُلْقِيَتْ في مكانٍ آخرَ.

فإنْ لم تُسْعِفْهُ بديهةٌ حاضرةٌ، وخاطرٌ سريعٌ، ومِرَانٌ على الارتجالِ طويلٌ – ضاع هو وما يدعو إليه.

وقد كان العَرَبُ ومَنْ بعدَهم يَرْتَجلُونَ الخُطَبَ ارتجالاً، قال الجاحظُ في وصفهم: « وكُلُّ شيءٍ للعرب فهو بديهةٌ وارتجالٌ، وكأنَّه إلهامٌ، وليستْ هناك مُعَاناةٌ، ولا مُكَابدةٌ، ولا إجالةُ فكْرٍ، ولا استعانةٌ؛ وإنَّما هو أنْ يصرفَ وهمَه إلى الكلامِ، وإلى الرَّجْزِ يومَ الخِصَامِ، أو حين أنْ يَمْتَحَ على رأسِ بئْرٍ،

---

(١) **الرَّأي الفطير**: هو الذي لا ينضج. **والقول القضيب**: هو المرتجل. انظر «زهرة الأدب» (١/١٥٤).

أو يَحْدُوَ (١) ببعيرٍ ، أو عند المُقَارَعَة ، أو المناقلة ، فما هو إلا أنْ يصرفَ وهمَهُ إلى جُملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصدُ ، فتأتيه المعاني إرسالاً ، وتنثالُ إليه الألفاظُ انثيالاً ، ثُمَّ لا يُقيِّدُه على نفسه ، ولا يُدرِّسُه أحداً من وَلَدِه، وكانوا أُمِّيِّينَ لا يكتبون ، ومَطْبُوعين لا يتكلَّفون ، وكان الكلامُ الجيِّدُ عندهم أظهرَ وأكثرَ ، وهم عليه أَقْدَرُ وأَقْهَرُ ، وكُلٌّ عليهم أَسْهَلُ ، وهو عليهم أَيْسَرُ من أنْ يفتقروا إلى تحفُّظ ، أو يحْتاجوا إلى تدارسٍ ، وليسوا كمَنْ حَفظَ علْمَ غيْره ، واحْتَذَى كلامَ مَنْ كان قَبْلَهُ ، فلم يَحْفظُوا إلاَّ ما علقَ بقلوبهم ، والتحمَ بصُدُورهمْ ، واتَّصلَ بعُقُولِهم منْ غَيْرِ تكلُّفٍ ، ولا قَصْدٍ ، ولا تحفُّظٍ ، ولا طَلَبٍ » (٢) .

خيانةُ البديهةِ في أوقاتِ الارتجالِ :

قال قُدامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ : « وينبغي له أنْ يتَّقِيَ خيانةَ البديهة في أوقات الارتجالِ ، ولا يَغُرَّهُ انقيادُ القَوْلِ له في بعضِ الأحوالِ ، فيركبَ ذلك في سائرِ الأوقاتِ ، وعلى جميعِ الحالاتِ ، فإنْ وَثِقَ بانقياد القول له، ومسامحته (٣) إيَّاهُ، فأتى بالبديهة بما يأتي به غيْرُهُ بعْدَ الرَّوِيَّة – فذلك الخطيبُ الَّذي لا يُعادلُهُ خطيبٌ ، والأديبُ الذي لا يُوازِنُهُ أديبٌ ، وبذلك وصف الشَّاعرُ بعضَهم ، فقال:

قَهَرَ الأُمُورَ بَدِيهَةً كَرَوِيَّةٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَرِيحَةً كَتَجَارِبِ (٤) .



(١) **الحداءُ** : الغناءُ للأبل لسوقها وحثّها عَلَى السَّيْر .
(٢) « البيان والتبيين » .
(٣) أي مساهلته ومواتاته .
(٤) « نقد النثر » (ص١١٠) .

١٤- الخِتَامُ

الختامُ : هو آخرُ ما ينْتَهي إلى آذانِ السَّامعين من كلامِ الخطيبِ ، ويُسَمَّى حُسْنَ المقطعِ .

وكما يكون التَّألُّقُ في المطلعِ، تكونُ البَرَاعَةُ في المَقْطَعِ ؛ إذْ هو آخر ما يتردَّدُ صَدَاهُ في قلوب السَّامعين .

وأجملُهُ ما آذَنَ [١] بانتهاءِ الكلامِ ، بأنْ يُشيرَ الخطيبُ في كلامِهِ إلى ما يُشْعِرُ بانتهاء الغَرَضِ .

وأمثلةُ حُسْنِ الختَامِ كثيرةٌ في الكتاب، والسُّنَّة ، وكلامِ البُلغَاء ، وانظرْ في خواتيمِ السُّوَرِ ، تَجِدْهَا غايةً في الحُسْنِ ، ونهايةً في الإبداعِ ، فقد جاءتْ متضمِّنَةً للمعاني البديعة مع إيذانِ السَّامعِ بانتهاءِ الكلامِ ، حتَّى لا يبقى معه للنفوس تَشَوُّقٌ إلى ما يُذْكَرُ بَعْدَهُ [٢] .

وَرَصَّعْتَ فِيْهِ الدُّرَّ ، حَتَّي تَرَكْتَهُ ... يُضِيءُ بلاَ شَمْسٍ ، وَيَسْري بلاَ قَمَرْ
فَعَيْنَاهُ سِحْرٌ ، والجَبِيْنُ مُهَنَّدٌ [٣] ... وَللهِ دَرُّ الرَّمْشِ، والجِيْدِ [٤] والحورْ!

---

(١) ما آذَنَ : أي أَعْلَمَ .
(٢) انظر : « فنّ الخطابة » (ص٥٧- ٥٨) .
(٣) المُهَنَّد : السيفُ الهندي .
(٤) الجِيد : العنق .



من صفات الخطيب

١ - حُسنُ المَظهَرِ .
٢ - الحِكمَةَ .
٣ - الرِّفقُ.
٤ - التَّبشيرُ .
٥ - التَّيسيرُ .
٦ - الصَّبرُ .
٧ - اليَقِينُ .
٨ - قوَّةَ الشَّخصيةِ .
٩ - الشَّجاعَةَ .
١٠ - عُلوُّ الهِمَّةِ .
١١ - التَّوَاضُعُ .
١٢ - الاستِقلالُ .
١٣ - القَناعَةَ والعِفَّةَ .
١٤ - لُزُومُ المُرُوءَةِ .

١- حُسْنُ المَظْهَرِ

على الخطيب أنْ يلبسَ أحْسَنَ ما يجد من الثِّياب ، فقد بَوَّبَ البخاريُّ باباً «يَلْبَسُ أَحْسَنَ مَا يَجِدُ» ، وفي حديث عبد الله بْنِ سَلَامٍ أنّه سمع النَّبيَّ -ﷺ- يقول على المِنْبَرِ يوْمَ الجُمُعَةِ : « **ما علَى أَحَدِكُمْ لَوِ اشْتَرى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبِ مِهْنَتِه** » (١).

وكان - ﷺ - يلبس العمَامةَ ، ويُرْخي الذُّؤَابةَ (٢) كما في حديث عَمْرو ابن حُرَيْث قال : « كَأَنِّي أَنْظرُ إلى رسولِ الله - ﷺ - عَلَى المِنْبَرِ ، وعليه عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ ، قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْها بيْنَ كَتِفَيْه » (٣).

وعلى الخطيب أن يُراعيَ عُرْفَ أهل بلده ؛ حتَّى لا يتسبَّبَ للإخلال بمعاني المروءة ، هذا إذا كان العُرْفُ مما يقرّه الشّرع، وإلاَّ فالشّرع هو المعتمدُ .

إنَّ العُيُونَ رَمَتْكَ إذْ فَاجَأْتَهَا ... وَعَلَيْكَ مِنْ شُهَرِ الثِّيَابِ لِبَاسُ
أَمَّا الطَّعَامُ فَكُلْ لِنَفْسِكَ مَا تَشَا ... وَاجْعَلْ لِبَاسَكَ مَا اشْتَهَاهُ النَّاسُ

وليحذر من اللِّباس التي هي من خصائص الكُفَّار ، وفي حديث عبد الله ابن عمْرو حينما رأى رسولُ الله - ﷺ - عليه ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ (٤)، قال: «**إنَّ هَذِه مِنْ ثِيابِ الكُفَّارِ ؛ فلا تَلْبَسْهَا** » (٥) .

---

(١) رواه أبو داود في الصّلاة (١٠٧٨) ، وابْنُ ماجَهْ في إقامة الصّلوات (١٠٩٥) ، وهو صحيحٌ لغيره ، قال في الزّوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » . انظر صحيح سنن أبي داود للألبانيّ (٩٨٩) ، وغاية المرام له (٧٦) ، والمشكاة له (١٣٨٩) ، وصحّحه في صحيح الجامع (٥٦٣٥) .

(٢) **يرخي الذّؤابة** : يُرْسِلُها ، **والذّؤابةُ** : طرف العمامة ، جمعها : ذوائب .

(٣) رواه مسلم في الحجّ (١٣٥٩) ، وأبو داود في اللّباس (٤٠٧٧) ، والنّسائيُّ في الزّينة (٥٣٤٨) ، وابن ماجه في اللّباس (٣٥٨٧) .

(٤) أي مصبوغين بالعصفر .

(٥) رواه مسلم في اللّباس والزّينة (٢٠٧٧) ، والنّسائيُّ في الزّينة (٥٣٨١) .

ومن اللِّباس الذي هو من خصائصِ الكُفَّار اليومَ وشعارهم البنطلون ، وما يفعلُهُ البَعْضُ من التَّزيُّنِ بحَلْق اللِّحية فهو معصيةٌ ، ومخالفةٌ للأَدِلَّة التي أمرت بإطلاقها ، كما أنَّ التَّزيُّنَ بحَلْق اللِّحية مِنْ خصائص الكُفَّار الذين أَمَرَنا نبيُّنا بمخالفتهم ، فقد صحَّ عن النَّبيِّ - ﷺ - في أحاديثَ كثيرةٍ - الأمرُ بإعفاء اللِّحى، وإحفاء الشَّوارب ، وعلَّل ذلك النَّبيُّ - ﷺ - بأنَّه مخالفةٌ للمشركين والمجوس، فقال - ﷺ -: « **جُزُّوا الشَّوَارِبَ، وَأَرْخُوْا اللِّحَى؛ خَالِفُوا المَجُوْسَ**»(١) .

وما أحسنَ ما ذكره القاسميُّ :

«عَلَى المتحدِّث - إذا أراد حُضُورَ مَجْلسِ التَّحْديث - أنْ يتطهَّرَ بغُسْلٍ أو وضوءٍ ، ويتطيَّبَ ، ويَسْتَاكَ - كما ذكره ابن السَّمعانيُّ - ، ويُسَرِّحَ لحْيَتَهُ ، ويجلس في صَدْرِ مجلسه متمكِّنًا في جلوسه بوَقَارٍ وهيبةٍ » (٢) .

عَفْوًا لَكَ اللهُ، قَدْ أَحْبَبْتُ طَلْعَتَكُمْ ... لأَنَّهـا ذَكَّـرَتْني سيـرَ أَسْلافي
يَفْـديكَ مَنْ جَـعَلَ الدُّنْيَـا رِسَالَتَـهُ ... مَنْ كُلِّ أَمْثَـاله تُفْـدَى بآلافِ !

وممَّا يدلُّك على أهميَّة حُسْنِ المَظْهَر ما رواه عُمَرُ بْنُ الخطَّاب - رضي الله عنه - قال : « **بَيْنَمَا نَحْنُ جلوسٌ عنْدَ رسولِ الله - ﷺ - ذَاتَ يَوْمٍ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيْدُ بياضِ الثِّيَاب ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفرِ ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حتَّى جلَسَ إلى النَّبيِّ - ﷺ -** ... » (٣) .

فتعلَّم - أخي - أنَّ الحكمةَ من مجيء جبريلَ - عليه السلام - بهذه الهيئة الحَسَنَةِ مِنْ شِدَّة بياضِ الثِّياب ، وشدَّةِ سوادِ الشَّعرِ ؛ ليَعْظُمَ اتجاهُهم إليه ، وإصغاؤُهم لما يقول .

---

(١) رواه مسلمٌ في الطَّهارة من حديث أبي هريرة (٢٦٠) .
(٢) « إصلاح المساجد » (ص٢٣٤) .
(٣) رواه مسلم في الإيمان (٨) ، وأبو داود في السُّنَّة (٤٦٩٥) ، والتِّرمذي في الإيمان (٢٦١٠) ، والنَّسائيُّ في الإيمان (٤٩٩٣) ، وابن ماجه في السُّنَّة (٦٣) .

وخُلاصَةُ القولِ أنَّه يَحْسُنُ بالخطيب أنْ يكونَ أحرصَ النَّاسِ على الكمال ، وأبْعدَهُمْ عَن النَّقْصِ ؛ لأنَّهُ مَطْمَحُ الأنظارِ ، والنَّظرُ يفعَلُ في القَلْبِ كما يفعلُ الكلامُ في السَّمْعِ .

ومن اللَّطائف أنَّ العَرَبَ في الجاهليَّة كان إذا أرادَ أَحَدُهم أنْ يَخْطُبَ اعْتَجَرَ عمامته ـ أي لبسَ العمامَةَ الكبيرةَ ـ ؛ حتَّى إذا رآها الحاضرون ، أحسُّوا برهبةٍ وخشوعٍ يُساعدان على الإذعان ، والقَبُولِ لما يقول .

تَفُـوحُ أَطْيَـابُ نَجْـدٍ مِـنْ ثِيَـابِهِم   عِنْدَ القُـدُوْمِ لِقُـرْبِ العَـهْـدِ بِالدَّارِ



٢- الحِكْمَةُ

لا شكَّ أنَّ صاحبَ الحكمة يتذوَّقُ الناسُ لَذَّةَ التَّأدُّب على يَدَيْه، ويستقبلون كلامَهُ بارتياحٍ، ورضًا، وحُسْنِ قَبُولٍ؛ لأنَّهُ يستخدمُ الأسلوبَ الحكيمَ في التعاملِ معهم، ويضعُ الأمورَ في مواضعِهَا الصَّحيحةِ امتثالاً لأمر الله – سبحانه وتعالى – القائل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ [1] وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النَّحْل: ١٢٥].

يقول ابنُ القيِّم – رحمه الله –: «أَطْلَقَ الحكمةَ، ولم يُقَيِّدْهَا بوصفِ الحَسَنَةِ؛ إذْ كُلُّها حَسَنَةٌ، ووصفُ الحُسْنِ لها ذاتيٌّ» [2].

وقال محمَّدٌ الألوسيُّ – نقلاً عن صاحب البحر – عند شرحه للآية: «إنَّها الكلامُ الصَّوابُ الواقعُ في النَّفسِ أَجْمَلَ مَوْقِعٍ» [3].

والحكمة نعمةٌ من الله – سبحانه وتعالى –: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وكما تكون نعمةً، فهي مكتسبةٌ، ومن أسباب اكتسابها التَّفَقُّهُ في الدِّين،

---

(١) كثيرٌ من التَّفاسير تُفَسِّر الحكمة ـ أحيانًا ـ بأنَّها القرآنُ، وأحيانًا تفسِّرُها بأنها السُّنَّةُ أو النُّبُوَّةُ، ولذلك وردتْ أحاديثُ في دعوة رسولِ الله – ﷺ – لحَبْرِ الأُمَّة ابن عبَّاسٍ بأن يُعلِّمَهُ اللهُ التَّأويلَ، والكتابَ، والفِقْهَ في الدِّينِ، وأَجملهَا البخاريُّ بقوله: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ**» صحيح البخاريّ، كتاب فضائل الصَّحابة (٣٧٥٦).
والمراد بذلك فَهْمُ القرآنِ والسُّنَّة، والعملُ بهما، كما صرَّح بذلك كثيرٌ من التابعين، وأكَّده ابنُ تيميَّة بقوله: «وأمَّا الحكمةُ في القرآن فهي معرفة الحقِّ، وقولُه، والعمل به» «الفتاوى» (٤٥/ ١٥). انظر «هذه أخلاقنا» للخازندار (ص١٢١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥).

(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٢٥٤).

فعن معاوية – رضي الله عنه – قال: سمعتُ رسولَ الله – ﷺ – يقولُ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيْرًا يُفقِّهْهُ في الدّيْن » (١).

وترجم البخاريُّ – رحمه الله – في كتاب العلم « باب الاغتباط في العلم والحكمة » باعتبار أنَّ العلمَ وسيلةٌ ، وأنَّ الحكمةَ نتيجةٌ طبيعيّةٌ ، ولذلك نقل في التَّرجَمةَ قول عُمَرَ : « تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا » لما تحتاجه الإمارةُ من حكْمَة العلْمِ ، وتَجْرِبَة العُلَمَاء ، ولم يُرِد البُخَارِيُّ أَنْ يُفْهَمَ من قول عُمَرَ أنَّ السِّيادة والإمرة تمنع من التواضع للعلماء ، فعَقَّبَ البخاريُّ : « وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا، وَقَدْ تعلَّمَ أصحابُ النَّبيِّ – ﷺ – في كِبَرِ سِنِّهِمْ » (٢) .

وكَثْرَةُ التَّجارِبِ هي التي تُكسبُ صاحبَها الحلْمَ والحكْمَةَ ، وهذا ما يُفْهَمُ من قولِ رسولِ الله – ﷺ – : « لا حَلِيْمَ إلا ذو عَثْرَةٍ ، ولا حَكِيْمَ إلا ذو تَجْرِبَةٍ » (٣) .

قال شاعرٌ في خطيبٍ حكيمٍ :

مُتَحَذْلِقٌ يقظٌ ، فَإِنْ أَرْسَلْتَهُ ... أَجْرَى لُعَابَ رَحِيْقِهِ مِنْ صَدْرِهِ

بَتَّارُ أَعْنَاقِ الأَنَامِ بِلَفْظِهِ ... سَلاَّبُ أَفْئِدَةِ الْمُلُوكِ بِسِحْرِهِ !

---

(١) رواه البخاريُّ في العلم (٧١) ، وفي فرض الخمس (٣١١٦) ، ومسلمٌ في الزكاة (١٠٣٧) ، وابن ماجه في السُّنَّة (٢٢١) ، وأحمد في مسنده ، ورواه التِّرمذيُّ عن ابن عبَّاس في العلم (٢٦٤٥) .

(٢) «البخاريُّ مع الفتح» (١/١٦٥) .

(٣) رواه التِّرمذيُّ في البرِّ والصِّلة (٢٠٣٣) ، وقال : حَسَنٌ غريبٌ ، والبخاريُّ في الأدب المفرد، وأحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدريِّ ، وصحَّحه ابن حبَّان .

٣ - الرِّفْقُ

مـا تحلّى الخطيبُ بأجـملَ من الرِّفق ، والرِّفْقُ هو اللُّطْفُ ، ومعناه الدَّفْعُ بالتي هي أحسنُ ، ولا يكونُ في شَيْءٍ إلا زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شَانَهُ .

قال الله – تبارك وتعالى – :

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ووصف اللهُ – سبحانه وتعالى – نبيَّه – ﷺ – وأصحابَهُ ، فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح : ٢٩]

وعن عائشةَ – رضي الله عنها – أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « **إنَّ اللهَ رَفِيقٌ ، يُحِبُّ الرِّفْقَ ، ويُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ ، ومَا لا يُعْطِي عَلَى ما سِوَاه** » (١) .

وعنها أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قالَ : « **إنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شَيْءٍ إلاَّ زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ** » (٢) .

ولا شكَّ أنَّه مَنْ أُعْطِيَ الرِّفْقَ والخُلُقَ ، فقد أُعْطِيَ الخَيْرَ كُلَّهُ ، والرَّاحَةَ كُلَّها ، وَحَسُنَ حَالُهُ في دُنْيَاهُ وآخرته ، ومَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ والخُلُقَ ، كان ذلك سبيلاً إلى كُلِّ شرٍّ وبليَّةٍ إلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ (٣) .

---

(١) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة والأدب برقم (٢٥٩٣) .

(٢) رواه مسلم – واللّفظ له – في البرِّ والصِّلة (٢٥٩٤) ، وأبو داود في الجهاد (٢٤٧٨) ، وفي الأدب (٤٨٠٨) .

(٣) انظر « حلية الأولياء » لأبي نعيم (١٨٦/٣) .

الرِّفْقُ أَيْمَنُ شَيْءٍ أَنْتَ تَتْبَعُهُ وَالخَرْقُ أَشْأَمُ شَيْءٍ يقدُمُ الرَّجُلا (١)
وَذُو التَّثَبُّتِ مِنْ حَمْدٍ إلى ظَفَرٍ مَنْ يركبُ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبِ (٢) الزَّلَلا (٣)

فإذا كان الأمر كذلك ، فحريٌّ بالخطيب الواعظ أنْ يتلطَّفَ بالكلام ، ولا يُكْثِر منَ اسْتخدامِ أسلوبِ الأمرِ والنَّهْي ، ولكنْ يستخدم أسلوبَ التَّرغيب والترهيب ؛ فإنَّ منَ النَّاسِ مَنْ يكْرَهُ أسلوبَ الأَمْرِ والنَّهْي ، بل إنَّ النُّفوس جُبلَتْ على ذلك ، ومتى أَظْهَرَ الخَطيبُ الحقَّ في مَعْرِضِ التَّحدِّي والإذلال ، فقد مكَّن للباطلِ منْ قلوبِ النَّاسِ - وإنْ كانَ عَنْ حُسْنِ نيَّة - ، فقد نقلَ الإمامُ الشاطبيُّ عن أبي حامدٍ الغزاليِّ - رحمهما الله - قولَهُ : «أكثرُ الجهالات إنَّما رسختْ في قُلُوبِ العَوَامِّ بتعصُّبِ جهلَةِ أَهْلِ الحقِّ ، أظهروا الحقَّ في مَعْرِضِ التَّحدِّي والإذلالِ ، ونظروا إلى ضُعَفَاءِ الخُصُومِ بعيْنِ التَّحقير والازدراء ، فثارتْ في بَوَاطنِهمْ دَوَاعِي المعاندة والمخالفة ، ورَسَخَتْ في قُلُوبِهم الاعتقاداتُ الباطلةُ ، وتعذَّرَ على العُلَماءِ المتلطِّفين مَحْوُهَا مع ظهور فسادها » (٤) .

لَمْ أَرَ مِثْلَ الرِّفْقَ في لِيْنِه أَخْرَجَ لِلْعَذْرَاءِ مِنْ خِدْرِهَا
مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا (٥)

ومن الرِّفْقِ والتَّلَطُّف أنْ يُقْبِلَ الخطيبُ على الناس بوجهٍ باشٍّ طلقٍ يذوب رقَّةً وخُلُقًا ، ومَنْ كانتْ هذه صفَاتُهُ ، كان أقدرَ على التفكير ، واختيارِ الكلمة المناسبة لِمُقْتَضَى الحال ، وهذا هو الخطيبُ النَّاجحُ .

---

(١) يَقْدُمُ الرَّجُلَ : يَقُودُهُ ويتقدَّمُهُ .
(٢) استحْقَبَ الشيْءَ : جعلَه في حقيبته، كأنَّهُ يرجعُ به إلى أصْلِه.
(٣) « روضة العقلاء » لابن حبَّان (ص٢١٦) .
(٤) « الاعتصام » (٢/٢٣) .
(٥) «حياة الحيوان» (١/٢٧٥) .

والعُبُوسُ ومَا يستصحبُهُ من كآبةٍ واضطرابٍ نفسيٍّ دليلٌ على صِغَرِ النَّفس، أمَّا النُّفوسُ الكبيرةُ فيكتنفها جوُّ السَّكينةِ والطُّمأنينة .[١]

وقال ابنُ عقيلٍ الحنبليُّ – رحمه الله – : « البِشْرُ مُؤْنِسٌ للعُقُولِ ، ومِنْ دَوَاعي القَبُولِ ، والعُبُوسُ ضِدُّهُ » [٢] .

وقال أبو حاتم – رحمه الله – : « البَشَاشَةُ إدامُ العُلَمَاءِ، وسَجِيَّةُ الحُكَمَاءِ؛ لأنَّ البِشْرَ يُطْفِئُ نَارَ المُعَانَدَة ، ويحْرِقُ هَيَجَانَ المُبَاغَضَة ، وفيه تَحْصينٌ من الباغي، ومَنْجاةٌ من السَّاعي [٣] ، ومَنْ بَشَّ للنَّاسِ وَجْهًا، لَمْ يكنْ عندهم بدُونِ الباذِلِ لهم ما يملكُ» [٤] .



(١) « أقوال مأثورة » للصبّاغ (ص١٨١) .
(٢) « الفنون » لابن عقيل (٢/٦٣٥) .
(٣) **السّاعي** : الَّذي يَسْعَى بالوقيعة ؛ ليُفرِّقَ بين الأحبَّة .
(٤) « روضة العقلاء » (ص٧٥) .

٤ - التَّبْشِيرُ

التَّبشير : هو بَثُّ الأَمَلِ في القلوب ، والبُعْدُ عن أساليب التَّنفير ، حتَّى في التَّخويف من الله ، والتَّرهيب من النَّار ، وقد بُعث رسولُ الله - ﷺ - بشيراً لأتباعه ، نذيراً لأعدائه ، بل تلك هي مُهمَّةُ الرُّسلِ أجمعين، قال - تعالى - : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٨] .

وبشَّر الله المبايعين على الجهاد، إنْ وَفَوْا بالبيعة، فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾ [التَّوبة : ١١١] .

وبَشَّر الرَّسولُ - ﷺ - الموحِّدين بالجنَّة، فقال :« **أَبْشِرُوا ، وبَشِّرُوا مَنْ وَرَاءَكم أنَّه مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ صادقًا مِنْ قَلْبِه ، دَخَلَ الجنَّةَ** » (١) .

وقال جبريلُ - عليه السلام - لرسول الله - ﷺ - :« **بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا ، دَخَلَ الجنَّةَ** » (٢) .

وحالُهُ - ﷺ - في خُطْبَته التَّبشيرُ ، كما في قوله - ﷺ - :« **إِنَّ هَذا الدِّينَ يُسْرٌ ، ولَنْ يُشَادَّ هَذا الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وقَارِبُوا ، وأَبْشِرُوا** » (٣) (٤) .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، والطَّبَرَانيُّ في الكبير عن أبي موسى الأشعريّ ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٥) ، والصَّحيحة (٧١٢) .

(٢) رواه البخاريُّ في الرِّقاق (٦٤٤٣) ، ومسلم في الإيمان (٢٦٤٤) عن أبي ذرٍّ .

(٣) رواه البخاريُّ في الإيمان (٣٩) ، والنَّسائيُّ في الإيمان (٥٠٣٧) عن أبي هريرة .

(٤) قال ابن حجر - رحمه الله - في « فتح الباري » (٩٥/١) ما نصُّه : « وأبشروا : أي بالثواب على العملِ الدائمِ - وإن قلّ - ، والمرادُ تبشيرُ مَنْ عجز عن العملِ بالأكملِ ، بأنَّ العجزَ إذا لم يكن من صنيعِهِ ، لا يستلزم نقصَ أجْرِهِ ، وأبْهَمَ المُبَشَّرَ به تعظيماً له وتفخيماً » .

وعن أنسٍ – رضي الله عنه – عن رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قال : « يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا » (١) (٢) .

بُشْرى منَ الغَيْبِ أَلْقَتْ في فَمِ الغَارِ وَحْيًا ، وأَفْضَتْ إِلَى الدُّنْيَا بأَسْرَارِ
بُشْرَى النُّبوَّةِ طَافَتْ كالشَّذَا(٣) سَحَرًا(٤) وأَعْلَنَتْ في الرُّبا(٥) مِيْلادَ أَنْوَارِ
وَشَقَّتِ الصَّمْتَ، والأَنْسَامُ(٦) تَحْمِلُهَا تَحْتَ السَّكِيْنَةِ مِنْ دَارٍ إلى دارِ

فعلى الخطيبِ أنْ يكونَ مَصْدَرًا للفألِ الحَسَنِ ، والأملِ الواسعِ ، والعاقبة الحميدة ، والمستقبلِ لهذا الدين ، فقد كان رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – يستعملُ أساليبَ التَّبشير، فعن بُرَيْدَةَ الأسلميِّ – رضي الله عنه – عن النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم – قال: « بَشِّرِ المشَّائِيْنَ في الظُّلَمِ إلى المساجِدِ بالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القيامة » (٧) .

وصلَّى العشاءَ مرَّةً بأصحابه، فأعتم بها حتَّى ابهارَّ اللَّيلُ ، وقَبْلَ أنْ ينصرفوا قال لهم : « عَلَى رِسْلِكُمْ ، أَبْشِروا ، إنَّ منْ نعْمَةِ اللهِ عَلَيْكُمْ أنَّه ليس أحَدٌ منَ النَّاس يُصلِّي هذه السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ » .

---

(١) رواه البخاريُّ في العلم (٦٩) ، وفي الأدب (٦١٢٥) ، ومسلمٌ في الجهاد (١٧٣٤) .

(٢) قال ابن حجر في « الفتح »(١٦٣/١) على هذا الحديث : « المرادُ تأليفُ مَنْ قَرُبَ إسلامُهُ، وتَرْكُ التَّشديد عليه في الابتداء ، وكذلك الزَّجْر عن المعاصي ينبغي أن يكونَ بتلطُّفٍ ؛ ليقبلَ ، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكونَ بالتَّدرُّجِ ؛ لأنَّ الشَّيْءَ إذا كانَ في ابتدائه سَهْلاً ، حُبِّبَ إلى مَنْ يدخلُ فيه ، وتلقَّاه بانبساط ، وكانتْ عاقبتُهُ – غالبًا – الازديادَ » .

(٣) **الشَّذا** : الرَّائحة الطَّيِّبة .

(٤) **السَّحَرُ** : الثُّلُثُ الأخيرُ من اللَّيلِ .

(٥) **الرُّبا** : الأماكن العالية ، والمفرد رَبْوَة.

(٦) **الأنسام** : الرِّياح اللَّيِّنة الطَّيِّبةُ ، مفردها نسيم .

(٧) رواه أبو داود في الصلاة (٥٦١) ، والتِّرمذيُّ في الصلاة (٢٢٣) ، وللحديث شاهدٌ من حديث سَهْلٍ السَّاعديِّ ، وحديث أنسٍ عند ابن ماجَهْ في المساجد (٧٨٠، ٧٨١) ، وعند الحاكم في مستدركه (٢١٢/١ ، ٢١٢/٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٣) .

قال أبو موسى الأَشْعَرِيُّ : « فَرَجَعْنَا فَفرِحْنا بما سَمِعْنَا من رسول الله ﷺ » [١] .

وقد وعد الله الذين آمنوا ، وكانوا يتقون بأنَّ : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٤] .

ومن البُشْرَى العاجلة حديثُ أبي ذرٍّ قال : قيل لرسول الله - ﷺ - : « أرأيتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ منَ الخير ، ويَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْه ؟ » . قال: «تلك عاجلُ بُشْرَى المؤمن » [٢] .

وفي توبة كَعْب بْنِ مالكٍ حيثُ ذهب إليه عَدَدٌ من المبشِّرين ، فناداه أَحَدُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إليه : « يا كعبُ بْنَ مالكٍ ، أَبْشِرْ » . يقول كَعْبٌ : « فخررتُ ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء الفَرَجُ » . وتلقَّاه الناسُ فَوْجًا فَوْجًا ، يُهنِّئونه بالتَّوبة ، ويقولون له : « لِتَهْنِكَ توبةُ الله عليك » .

ولَمَّا سلَّم على رسولِ الله - ﷺ - قال وهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ من السُّرور : « أَبْشِرْ بخير يَوْمٍ مَرَّ عليك مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » [٣] .

ومن اللَّطائف :

ما ورد في هذه القصَّة روايةٌ نقلها صاحبُ الفتح : يقول كَعْبٌ : « فأنزلَ الله تَوْبَتَنَا عَلَى نبيِّه حين بَقِيَ الثُّلُثُ الأخيرُ منَ اللَّيل ، ورسولُ الله - ﷺ - عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ - وكانت أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً في شأني ، مُعْتَنِيَةً بأمري - فقال : «يا أُمَّ سَلَمَةَ ، تِيبَ عَلَى كَعْبٍ » . قالت : « أَفَلا أُرْسِلُ إليه؛ فَأُبَشِّرَهُ ؟ » .

---

(١) رواه البخاريُّ - واللَّفظ له - في المواقيت (٥٦٧) ، ومسلمٌ في المساجد (٦٤١) .
(٢) رواه مسلم في البرِّ والصِّلة (٢٦٤٢) .
(٣) رواه البخاريُّ في المغازي (٤٤١٨)، ومسلمٌ في التَّوبة (٢٧٦٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٧٧٣) .

قال : « **إذَا يَحْطِمَكُمُ**[١] **النَّاسُ ، فيمنعونكم النَّومَ سَائِرَ اللَّيلة** »[٢] .

جَزَاهُمُ اللهُ عَنْ دِيْنِ الرَّسُوْلِ ، فَمَا أَحْلَى مَآثِرَهُمْ في سَالِفِ الحقَبِ !
لَولا لَطَائِفُ صُنْعِ اللهِ مَا نَبَتَتْ تِلْكَ المَكَارِمُ في لحْمٍ ولا عَصَبِ



---

(١) **يحطمكم** : يجتمع عليكم.
(٢) « فتح الباري » (٨/١٢١ – ١٢٢) .

٥ - التَّيْسِيرُ

عليك - أخي الخطيب - بالتَّخلُّق بخُلُق التَّيسير ؛ فقد تكفَّلَ اللهُ بالوقاية مـن النَّـارِ ، وبغُفْـرانِ الذُّنوب لمنْ تخلَّقَ بهذا الخُلُق العظيم ، فعن ابن مسعودٍ - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله - ﷺ - : « **حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هيِّنٍ ، ليِّنٍ ، سَهْلٍ ، قَرِيْبٍ مِنَ النَّاسِ** » (١) .

ومن طبيعة هذا الدِّين ، ومن قواعده الشَّرعيَّة رَفْعُ الحَرَجِ ، فما كان أيْسَرَ، كان أرضى لله لقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

قال العلاَّمةُ ابنُ سَعْديٍّ - رحمه الله - في تفسير هذه الآية : « أيْ يريد الله - تعالى - أنْ يُيَسِّرَ عليكُـم الطُّـرُقَ الموصِّلَـةَ إلـى رِضْوَانه أعْظَمَ تيسيرٍ ، ويُسَهِّلَها أعْظَمَ تسهيلٍ ؛ ولهذا كان ما أمر اللهُ به عبادَهُ في غاية السُّهولة في أصله » (٢) .

ونقلَ القاسميُّ - رحمه الله - عن الشعبيِّ قولَهُ : « إذا اختلف عليك أمران ، فإنَّ أيسرَهما أقْرَبُهما إلى الحقِّ لقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ » (٣) .

وقال رسولُ الله - ﷺ - : « **إنَّ الدِّين يُسْرٌ** » (٤) .

---

(١) رواه التِّرمذيُّ في صفة القيامة (٢٤٨٨) ، وقال : حَسَنٌ غريبٌ ، وأحمد في مسنده (٤١٥/١) ، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الطَّبرانيِّ في الأوسط ، وعند العقيليِّ في الضعفاء ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٠٣٥) ، والصَّحيحة (٩٣٨) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » لابن سَعْديٍّ (ص٨٦ - ٨٧) .

(٣) « محاسن التأويل » للقاسميِّ (٤٢٧/٣) .

(٤) سبق تخريجه في رقم (٣) من حاشية (ص٩٩) .

وقال: «إِنَّكُمْ لَنْ تَنَالُوا هـذا الأَمْرَ بالمغالبة، وخَيْرُ دِينِكُمُ اليَسْرَةُ» (١).

وقـد ورد في شمائله - ﷺ - أنَّهُ: «كَانَ يُحِبُّ ما خفَّ عَلَى النَّاس» (٢).

وعن عائشة - ﵂ - قالت: «إِنْ كَانَ رسولُ الله - ﷺ - لَيَدَعُ العَمَلَ - وهو يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ به - خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ به النَّاسُ، فيُفْرَضَ عليْهِمْ» (٣).

فعلى الخطيب أنْ يُيَسِّرَ على النَّاسِ ، فيأمرهم بما يُطيقون اقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ فقد كان رسولُ الله - ﷺ - وهو في صلاته يحسب حساب مَنْ يأتمُّون به؛ لئلاَّ يَشُقَّ عليهم ، وإذا توقَّع الحَرَجَ - ولو لواحدٍ ممَّنْ خَلْفَهُ - اختصر تيسيراً ورَفْعًا للحَرَجِ، فعن أبي قَتَادَةَ قال : قال رسولُ الله - ﷺ -: « **إنِّي لأَقُومُ إلى الصَّلاة ، وأنا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فيها ، فأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ ، فأَتَجَوَّزُ في صلاتي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّه** » (٤).

وحين أرسل - ﷺ - معاذَ بْنَ جَبَلٍ وأبا موسى الأشعريَّ - ﵄ - إلى اليمن ، أوصاهما بالتيسير على الناس، فقال: « **بَشِّرا وَيَسِّرَا ، وَعَلِّمَا ولا تُنفِّرَا** - وأراه قال - **وَتَطَاوَعَا** » (٥).

فما أجملَ أن يُراعيَ الخطيبُ سُنَّةَ التَّيْسِيرِ ، فلا يَشُقُّ على النَّاسِ بإيراد البديهيَّاتِ ، وسَرْدِ أَقْوَالِ أَهْلِ العِلْمِ في المسألة الواحدة ، ممَّا يُوقِعُهُم في حَيْصَ

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، والبيهقيُّ في شعب الإيمان ، وابنُ سَعْدٍ في طبقاته عن ابن الأدرع، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢٣١١) ، والصَّحيحة (١٧٠٩) .

(٢) رواه البخاريُّ وحسَّنه ، انظر « بلوغ الأماني » (٢٣/١٥) .

(٣) رواه البخاريُّ في التَّهجد (١١٢٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (١٧١٨)، وأحمدُ في مسنده (٣٤/٦ و١٦٨ و١٧٠) .

(٤) رواه البخاريُّ في الأذان (٧٠٧) ، وأبو داود في الصَّلاة (٧٨٩) ، والنَّسائيُّ في الإمامة (٨٢٦) ، وابن ماجه في إقامة الصَّلوات (٩٩١) ، وأحمد في مسنده ، ورواه عن أنسٍ مسلم في الصلاة (٤٧٠) ، والترمذيُّ في الصلاة (٤٧٦) .

(٥) رواه البخاريُّ في الأدب (٦١٢٤) ، ومسلم في الجهاد (١٧٣٣) .

بيّص ، فمنَ التّيْسير أنْ يذْكُرَ لهم القولَ الرّاجحَ بدليله ، وهذا يحتاج إلى فقْه ، كما فعل ابْنُ عبّاسٍ - رضي الله عنهما - حين رأى المَطَرَ متواصلاً وغزيراً يوْمَ الجمعة ، وخشِيَ على النّاسِ التّخبُّطَ في الطّين ، أو الانزلاقَ بسببه ، فقال للمُؤذّن أنْ يقولَ بدلاً من (حيّ على الصّلاة) : « صلّوا في بيُوتكُمْ » ، فكأنَّ النّاسَ استنكروا ذلك ، واعترضوا عليه ، فقال ابْنُ عبّاسٍ : « فعَلَهُ مَنْ هو خيرٌ منّي ، إنّ الجُمُعَةَ عزْمَةٌ ، وإنّي كرهْتُ أنْ أُخْرِجَكُمْ في الطّينِ والدّحْضِ(١)» (٢) .

فانظر إلى قوله : « فعَلَهُ مَنْ هو خيرٌ منّي » ، فهذا شأْنُ أهلِ العلْم ، يُيَسّرُونَ للنّاسِ من كتابِ الله إلى كتابِ الله ، ومنْ سُنّة رسولِ الله إلى سُنّة رسولِ الله ، لا شأن الأحْداث ، يفعلونَ ذلكَ منْ تلْقاءِ أنفسهم ، وقد يلتمسون للنّاسِ الرُّخَصَ من أقوال أهلِ العلم ، ولا دليلَ عليها ؛ كي يظهروا لهم أنّهم مُيَسّرون، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ! .

يقول الإمامُ البُخاريُّ - رحمه الله- : «وكانتْ الأئمّةُ بعد النّبيّ - ﷺ - يستشيرون الأُمَناءَ منْ أهلِ العلمِ في الأمورِ المباحة ؛ ليأخذوا بأسْهلِها ، فإذا وُضِعَ الكتابُ والسُّنّةُ ، لم يتعدَّوْهُ إلى غيْره اقتداءً بالنّبيّ - ﷺ - » (٣) .

والتّيْسيرُ لا يُحْسنُهُ كُلُّ أحَد ، أمّا التّشْديدُ فكُلُّنا نُحْسنُهُ ، ولذلك قال معمرٌ وسفيانُ الثّوريُّ : « إنّما العلْمُ أنْ تسمعَ بالرُّخْصَةِ منْ ثقَةٍ ، وأمّا التّشديدُ فيُحْسنُهُ كُلُّ أحَد » (٤) .

وممّا ينبغي التّنبيهُ عليه أنّ التّيسيرَ إنمّا يكونُ للجاهلِ حتى يتعلّمَ ، وترك

---

(١) **الدّحْض** : الزّلَقُ .
(٢) رواه البخاريُّ في الأذان (٦٦٨) ، وفي الجُمُعَة (٩٠١) ، وأبو داود في الصّلاة (١٠٦٦) ، وابن ماجه في إقامة الصّلوات (٩٣٩) .
(٣) « صحيح البخاريّ مع الفتح » (٣٣٩/١٣) .
(٤) « جامع بيان العلم وفضله » (ص٢٨٥) .

التشديد عليه في الابتداء ، فقد كان رسولُ الله - ﷺ - لا يقبل من أصحابه أيَّ نَوْعٍ من الإحراجِ ، إنَّما يقولُ لهم كما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ في قصَّة الأعرابيِّ الذي بالَ في المسجد ، فثاروا عليه ، وكادوا يَقَعُون به ، فقال النَّبيُّ - ﷺ - : « **دَعُوهُ ، وأَهْرِيقُوا على بَوْلِهِ ذَنُوبًا**[1] **مِنْ ماءٍ ؛ فَإِنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِيْنَ ، ولَمْ تُبْعَثُوْا مُعَسِّرِيْنَ** »[2] .



(١) **الذَّنوبُ** : هي الدَّلْوُ المُمْتَلِئةُ ماءً .
(٢) رواه البخاريُّ في العلم (٢٢٠) ، وفي الأدب (٦١٢٨) ، وأصحابُ السُّنن في الطَّهارة ، وهو عند أبي داود (٣٨٠) ، والتِّرمذيِّ (١٤٧) ، والنَّسائيُّ (٥٦) ، وابن ماجه (٥٢٩) ، ورواه عن أنسٍ مسلم في الطَّهارة (٢٨٤) .

٦- الصَّبْرُ

إنَّ الصبرَ من أعظمِ صفات الخطيب ، ونظراً لأهمِّيَّته فقدْ جَعَلَ اللهُ - تبارك وتعالى - الإمامةَ في الدِّينِ موروثةً عن الصَّبرِ واليقينِ ، فقال - عزَّ مِنْ قائلٍ - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وذكر الله - تبارك وتعالى - الصَّبْرَ في القرآن الكريم في نيِّف[١] وتسعين موضعاً، وأضافَ أكثرَ الدَّرجاتِ والخيراتِ إلى الصبر، وجعلها ثمرةً له، وجمع للصابرين بين أمورٍ لم يجمعْها لغيرهم، فقال ربُّ العزَّة والجلال: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] [٢] .

وبشَّر نبيُّنا - ﷺ - بقوله : « **ما يُصيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ** - أي وَجَعٍ وتَعَبٍ - ، **ولا وَصَبٍ** - أي مَرَضٍ - ، **ولا هَمٍّ ، ولا حَزَنٍ ، ولا أذىً ، ولا غَمٍّ - حتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا - إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بها مِنْ خَطَايَاهُ** » [٣] .

ومتى تصدَّرَ الخطيبُ لإرشاد النَّاسِ وهدايتهمْ ، فقد استشرف لِغَمْزِ كثيرٍ من الناس ولَمزِهمْ ، فإنْ قُدِّرَ أنَّه يَسلمُ منهم فليس بخطيبٍ .

قال ابنُ حزمٍ - رحمه الله - : « بابٌ عظيمٌ مِنْ أبوابِ العقلِ والرَّاحة ، وهو طَرْحُ المُبالاة بكلامِ النَّاسِ ، واستعمالُ المبالاة بكلامِ الخالقِ - عزَّ وجلَّ - بل هذا بابُ العقلِ كُلِّه ، والرَّاحةِ كُلِّها ، ومَنْ قَدَّرَ أنَّه يسلمُ مِنْ طَعْنِ النَّاسِ وعيبِهم ، فهو مجنونٌ » [٤] .

---

(١) **النَّيِّف** : من الواحد إلى التِّسْعة، ونيَّف بمعنى زاد .
(٢) « عدَّة الصَّابرين » لابن القيِّم (ص٩٨) .
(٣) رواه البخاريُّ - واللَّفظ له - في المرضى (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ، ومسلمٌ في البرِّ والصِّلة (٢٥٧٣) ، وأحمد في مسنده عن أبي سعيد وأبي هريرة .
(٤) « مداواة النفوس » لابن حزمٍ الأندلسيِّ (ص٤٥) .

قال ابن القيِّم :

قُلْ لي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ
مِنْ جَاهِلٍ ، ومُعَانِدٍ ، ومُنَافِقٍ ومُحَارِبٍ بالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ ؟!
وتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثًا لَهُمْ ، وما نِلْتَ الأَذَى في نُصْرَةِ الرَّحْمَنِ
كَلاَّ ، وَلاَ جَاهَدْتَ حَقَّ جِهَادِه في اللهِ لاَ بِيَدٍ ، وَلاَ بِلِسَانِ!

ومن جميلِ ما أوصى به لُقْمانُ ابْنَهُ الصَّبْرُ عَقِبَ الأمر بالمعروف ، والنَّهْيُ عن المنكرِ ؛ وذلك لأنَّ الآمرَ بالمعروف ، والناهي عن المنكر لن يَسْلَمَ من طَعْنِ الناس وعيبهم ، وقد بيَّن لقمانُ لابنه أنَّ الصَّبرَ هنا من عَزْمِ الأمور ، قال الله - تبارك وتعالى - على لسان لقمانَ : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

[لقمان : ١٧] .

بَنَى اللهُ بَيْتًا للأَخْيَارِ سَمَاؤه هُمومٌ وأَحْزانٌ وحِيطانه الصَّبْرُ
وأدخلهم فِيهِ وأَغلَقَ بابَهُ وقالَ لهم مفتاحُ بابكم الصَّبْرُ

فالزم - أخي - الصَّبْرَ تَسْتَوْفِ كمالَ الأجر ؛ فمن جميل ما قاله ابن حبَّانَ رحمه الله - : « الصَّبْرُ : جِماعُ الأمر ، ونظامُ الحَزْم ، ودِعَامَةُ العَقْلِ ، وبَذْرُ الخير وحِيلَةُ مَنْ لا حيلةَ له .

وأوَّلُ درجتَه الاهتمامُ ، ثُمَّ التَّيَقُّظُ ، ثُمَّ التَّصبُّرُ ، ثُمَّ الصَّبرُ ثُمَّ الرِّضا ، وهو النهايةُ في الحالاتِ » (١) .

وقال - أيضًا - : « يجب على العاقل - إذا كان مبتدئًا - أنْ يلزمَ عندَ ورودِ الشِّدَّةِ عليه سلوكَ الصَّبرِ ، فإنْ تمكَّن منه حينئذٍ ، يرتقي من درجةِ الصَّبْرِ

(١) «روضة العقلاء» (ص١٦١ - ١٦٢) .

إلى درجة الرِّضا ، فإنْ لم يُرْزَقْ صَبْرًا فَلْيَلْزَمِ التَّصَبُّرَ ؛ لأنَّه أوَّلُ مراتبِ الرِّضا ، ولو كانَ الصَّبْرُ من الرِّجالِ لكانَ رجُلاً كريمًا ؛ إذ هو بَذْرُ الخير ، وأساسُ الطَّاعات » [١] .

وما أَجْمَلَ ما قالهُ عُثْمانُ بْنُ عفَّان :

خَلِيْلَيَّ، لا واللهِ، مَا مِنْ مُلِمَّةٍ[٢] تَدُوْمُ عَلَى حَيٍّ، وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ[٣]
فَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَلا تَخْضَعَنَّ لَهَا وَلاَ تُكْثِرِ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ
فَكَمْ مِنْ كَرِيْمٍ قَدْ بُلِي بِنَوائبٍ[٤] فَصَابَرَهَا حَتَّى مَضَتْ وَاضْمَحَلَّتِ
وكَمْ غَمْرَةٍ[٥] هاجَتْ بِأَمْواجِ غَمْرَةٍ تلقَّيْتُها بالصَّبْرِ حتَّى تجلَّتِ
وَكَانَتْ على الأيَّامِ نَفْسِي عَزِيزةً فلمَّا رأَتْ صَبْري على الذُّلِّ ذَلَّتِ
فقلتُ لها : يا نَفْسُ ، مُوتي كريمةً فَقَدْ كانتْ الدُّنيا لنا ، ثمَّ ولَّتِ[٦]

---

(١) المرجع السَّابق (ص١٦١) .
(٢) المُلِمَّة : النَّازلة من نوازلِ الدَّهْر، جمعها مُلِمَّات .
(٣) جلَّت : عظمت .
(٤) نوائب : جمع نائبة ، وهي المصيبة والنَّازلة .
(٥) الغَمْرة : واحدة الغَمَرات ، وهي الشَّدائد والأهوال .
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٩١) .

٧ - اليَقِينُ

المؤمنُ على يقينٍ من نَصْرِ الله له، حتّى في مرحلةِ الابتلاءِ والمِحَنِ، فسبيلُهُ في تبليغ دعوة الله إلى العالمين هو الصَّبر واليقين، يقول الله - سبحانه وتعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

[السجدة : ٢٤] [١].

وخصَّ اللهُ - سبحانه وتعالى- أهل اليقينِ بالانتفاعِ بالآياتِ منْ بَيْنِ العالمين ، فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٠] .

وخصَّهم بالهدى والفلاح ، فقال ـ تبارك ، وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة : ٤ ، ٥] .

وأخبر عن أهل النار بأنّهم لم يكونوا من أهل اليقين فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال ابن القيّم - رحمه الله - : « اليقين روحُ أعمالِ القلوب ، التي هي أرواحُ أعمالِ الجَوَارِحِ ، وهو حقيقةُ الصِّدِّيقيَّة ، وهو قُطْبُ هذا الشَّأْنِ الذي عليه مدارُهُ » [٢] .

---

(١) **قال ابن القيّم - رحمه الله -** : «سمعتُ شيخَ الإسلامِ ابْنِ تيميَّةَ - قدَّس اللهُ رُوحَهُ - يقول : بالصبرِ واليقينِ تُنال الإمامة في الدِّين . ثم تلا قوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ . « تهذيب مدارج السَّالكين » (٢/٥٦٠) .

(٢) « تهذيب مدارج السَّالكين » (٢/٧٢٧) .

وقال – أيضًا –: « ومتى وصل (اليقين) إلى القلب ، امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كُلُّ رَيْبٍ ، وَسَخَط ، وهَمٍّ ، وغَمٍّ ، فامتلأ محبةً لله ، وخوفًا منه ، ورضًا به ، وشكرًا له ، وتوكُّلاً عليه ، وإنابةً إليه ، فهو مادةُ جميعِ المقامات ، والحاملُ لها » (١) .

واليقين أهمُّ ما يُؤْتاه المَرْءُ كما في الحديث : « **وَسَلوا اللهَ اليقينَ والمُعافاةَ؛ فإنَّهُ لم يُؤْتَ أَحَدٌ بَعْدَ اليَقِيْنِ خيْرًا منَ المُعَافَاة** » (٢) .

وقد حدَّث رسولُ الله – ﷺ – عن ثلاثة أصنافٍ منَ النَّاس ، لا خَيْرَ فيهم، فعن فضالةَ بْنَ عُبَيْد أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال : « **ثلاثةٌ لا تَسْأَلْ عَنْهُمْ ... ورَجُلٌ في شَكٍّ منْ أَمْرِ الله ، والقَنُوطُ منْ رَحْمَةِ الله** » (٣) .

وأخبر –ﷺ – أنَّ صلاح أوَّل هذه الأُمَّة بالزُّهْدَ واليقين، فقال : « **صَلاحُ أَوَّلِ هَذه الأُمَّة بالزُّهْد واليقين ، ويَهْلَكُ آخرُهَا بالبُخْلِ والأَمَلِ** » (٤) .

فكَن – أخي – على يقينٍ بأنَّ العاقبةَ للمتقينَ ، وأنَّ المستقبلَ لهذا الدِّين، مهما اشتدتْ غُرْبةُ الإسلام ؛ فإنَّ من سُنَّة الله كما أخبر – ﷺ – : « **لاَ يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ في هذا الدِّيْنِ غَرْسًا ، يَسْتَعْمِلُهُمْ فيه بطاعَتهِ إلَى يَوْمِ القِيَامَة** » (٥) .

---

(١) المرجع السابق (٢/٧٢٨) .

(٢) رواه التِّرمذيُّ في الدَّعوات (٣٥٥٨) ، وابن ماجَهْ في الدُّعاء (٣٨٤٩) ، وأحمد في مسنده ، والبخاريُّ في الأدب المفرد عن أبي بكرٍ . وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٦٣٢، ٤٠٧٢).

(٣) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد ، وابنُ حبَّانَ في صحيحه ، والطَّبرانيُّ في الكبير ، وأبو يعلى في مسنده ، وابن عساكر ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٠٥٩) ، والصَّحيحة (٥٤٢) .

(٤) رواه أحمد في الزُّهد ، والطَّبرانيُّ في الأوسط ، والبيهقيُّ في الشُّعب عن ابن عَمْرو ، وحسَّنهُ الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٨٤٥) .

(٥) رواه ابن ماجَهْ في السُّنة (٨) ، وأحمد في مُسنده ، والبخاريُّ في التاريخ عن أبي عِنَبَةَ الخَولانيِّ ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٧٦٩٢) ، والصَّحيحة (٢٤٤٢) .

وقال - ﷺ - : « **بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّنَاءِ ، والدِّينِ ، والرِّفْعَةِ ، والنَّصْرِ والتَّمكينِ في الأرضِ** » (١) .

والأصلُ في الإسلامِ العُلُوُّ والارتفاعُ ، كما قال - ﷺ - : « **الإسلامُ يَعْلو ، ولا يُعْلَى** » (٢) .

وفي كُلِّ قَرْنٍ يجعل الله سابقين في الخير ، يقتدي بِهِمُ النَّاسُ، كما قال - ﷺ - : « **في كُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتي سابقون** » (٣) .

وفي كُلِّ قَرْنٍ يبعثُ الله لهَذه الأُمَّة مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دينها، كما قال -ﷺ - : « **إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِيْنَهَا** » (٤) .

نُجُومُ سَمَاءٍ، كُلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ   بَدَا كَوْكَبٌ ، تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهْ



---

(١) رواه أحمدُ في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، وابن حِبَّان في صحيحه ، والبيهقيُّ في الشُّعب ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢٨٢٥) .

(٢) رواه الرويانيُّ ، والدَّارقطنيُّ ، والبيهقيُّ في سننه ، والضياء في المختارة عن عائذ بن عَمْرٍو، وحسَّنه الألبانيُّ في الإرواء (١٢٦٨) ، وصحيح الجامع (٢٧٧٨) .

(٣) رواه الحكيم عن أنسٍ ، وأبو نعيم في الحلية ، والديلميُّ عن ابن عُمَرَ ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٢٦٧) ، والصَّحيحة (٢٠٠١) .

(٤) رواه أبو داود ، والحاكم ، والبيهقيُّ في المعرفة عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح أبي داود (٩٢٩١/٣٦٠٦) ، وصحيح الجامع (١٨٧٤) ، والصَّحيحة (٥٩٩) .

٨ - قُوَّةُ الشَّخْصِيَّةِ

إنَّ قوَّةَ الشخصية تجعلُ لكلامِ الخطيب سلطانًا ساحرًا في أعينِ الناسِ وقلوبهم ، وهي هبةٌ من الله ، يَهبُها مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِه ، وبوسعنا أنْ نصلَ إليها ، إذا صلحت منَّا السَّرائرُ .

قال الشيخ محمَّدٌ أبو زهرة - رحمه الله - :

« قُوَّةُ الشَّخْصيَّة هي هبةٌ من الله - تعالى - يهبها بعضَ الناسِ ، تَرَى كُلَّ مَنْ يلقاه يحسُّ بقوَّةِ روحه ، وعظَمِ نَفْسه ، فتَسْتَمدُّ كلماتُه مِنْ نفسه قُوَّةً ، نظراتُه شُعَاعٌ ينفذُ إلى القلوبِ ، وصوتُه يهُزُّ النفوسَ هزَّاتٍ روحيَّةً ، تجعلها تلقفُ عباراته ، فتنطبعُ فيها مُكبَّرةً ، وإذا وهبَ اللهُ خطيبًا تلك الرُّوحَ ، قادَ الجماهيرَ وساقها بعصا موسى ، فلا تَشْرُدُ منه شاردةٌ » [١] .

فما أجملَ أنْ يكونَ الخطيبُ قويَّ الشخصيَّة ، مَهيبًا وَقُورًا ، ذا نفوذٍ واقتدارٍ ؛ فإنَّ ذلك يجعلُ لكلامه روحًا من التأثيرِ والتنفيذِ ، يجعله يُطاعُ من غير أيِّ اعتراضٍ ، حتى يتأثَّرَ بقولِه أشدُّ الناس بُغْضًا له .

إنْ كَانَ يُرْضِيْكَ أنْ تَهْوِي[٢] جَمَاجِمُنَا عَلَى التُّرَابِ ، فَهَذَا الفِعْلُ يُرْضِينَا
مَا تَخْجَلُ الشَّمْسُ إلاَّ مِنْ مَوَاقِفِنَا وَلاَ تَهَابُ العِدَى[٣] إلاَّ مَوَاضِيْنَا[٤]

ومن اللَّطائف ما ذكره الشيخ أبو زهرة - رحمه الله - : أن بعضَ أعداء نابليونَ ذهب للقائه ، فقال لصاحبه وهو ذاهبٌ إليه : « أيُّها الصديق ، إنَّ لذلك الرَّجل الشَّيطانيِّ في نفسي تأثيرًا لستُ أُدْرِكُهُ ، حتَّى أنَّك لتراني إذا

(١) « الخطابة » (ص٥٧) .
(٢) تَهْوِي : تسقطُ من أعلى إلى أسْفل .
(٣) العِدَى : الأعداء .
(٤) المَوَاضِي : السُّيوف القاطعة.

اقتربت منه ، تأخذني الرِّعْشةُ كالطِّفلِ الصَّغير ، ويُخَيَّلُ إليَّ أنه قادرٌ على إدخالي في سَمِّ [١] الخياط ، وإحراقي بالنَّار » [٢] .

إذا كان نهرو منقذاً فهو أهوجُ ... وإنْ كانَ تيتو قائداً فهو مُدْبِرُ
ولينينُ سَفَّاكٌ ، وهتلرُ طائشٌ ... وصَولاتُ نابلْيُونَ مَوْتٌ مُقطَّرُ
وَهَذا حَنيفٌ مُسْلِمٌ ثابتُ الخُطَا ... صَلاةٌ تُؤدَّى ، أو كِتابٌ يُفَسَّرُ

وهناك وسائلُ لتنمية الشَّخْصيَّة ، نُجْمِلُها فيما يأتي :

١ - طلب العلم الشَّرعيِّ :

إنَّ المتمكِّنَ من العلومِ الشَّرعية ، والثَّقافة العامَّة ينظرُ النَّاسُ إليه نَظْرَةَ إكبارٍ وتقديرٍ ، كما قال الإمام أبو حنيفةَ - رحمه الله - وهو يتكلَّم عن شيخه حمَّاد ابن مسلمٍ ، حيثُ يقول : « مَا مَدَدْتُ رِجْلِي نَحْوَ دارِهِ ، وإنَّ بيْني وبَيْنَهُ سَبْعَ سِكَكٍ » [٣] .

وقال أبو عثمانَ المازنيُّ :

«رأيتُ الأَصْمَعيَّ وقد جاء إلى حلقة أبي زيد (كان من أئمة الأدب) ، فقبَّل رأسَهُ ، وجلسَ بينَ يديه ، وقال: أنت رئيسُنا وسيِّدُنا مُنْذُ خمسين سنةً» [٤] .

وكان الحَسَنُ لا يستطيعُ أَحَدٌ أنْ يسألَهُ هيبةً لَهُ ، وكذلك مالكُ بْنُ أنسٍ يُهَابُ أنْ يُسْأَلَ ، حتَّى قال فيه القائل :

يَدَعُ الجَوَابَ ، فلا يُراجَعُ هيبةً ... والسَّائلُونَ نَوَاكسُ [٥] الأَذْقَانِ
نورُ الوَقَارِ ، وعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى ... فَهُوَ المَهِيبُ ، ولَيْسَ ذا سُلطَانِ

---

(١) أي ثقب الإبرة .
(٢) المرجع السابق (ص٧٢) .
(٣) « مع الرعيل الأوّل » للخطيب (ص٦٨) .
(٤) « تذكرة السامع والمتكلّم » للكنانيّ (ص٨٩) .

٢ - التَّقْوى :

فمتى اتَّقَى العبدُ اللهَ ، جعل اللهُ له هيبةً ووَقَارًا ، ومنزلةً في قلوب عباده ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .أي مودَّةً في قلوب عباده .

٣ - الشجاعة بنوعيها : شجاعة القلب ، وشجاعة العقل :

فالأولى تَحْمِلُهُ على ألاَّ يخافَ إلاَّ اللهَ ، والثَّانيةُ تَدْفَعُهُ إلى الصَّدْع بالحقِّ الذي يعتقدُه ، ويدعو إليه بحِكْمَةٍ ، يُصاحبها معرفةٌ للحقِّ ، ورحمةٌ بالخَلْقِ .



٩ - الشَّجَاعَةُ

الشَّجاعةُ من أهمِّ صفات الخطيب ، وهي تنبعُ من غرائزَ فطريَّة ، وقد جعلَ اللهُ أَمْرَ الدِّين لا يقومُ إلاَّ بالشَّجاعة ، ومَنْ تصدَّرَ للخَطَابَة ، لابُدَّ أَنْ يكونَ صاحبَ قَلْبٍ شُجَاعٍ ، فعن أنسٍ قال : « كان رسولُ اللهِ - ﷺ - أَحْسَنَ النَّاس ، وأَشْجَعَ النَّاسِ ، وأَجْوَدَ النَّاسِ » (١) .

وكان - ﷺ - يقولُ : « **لَوْ كَانَ لي عَدَدُ هَذه العضَاه** (٢) **نَعَمًا** (٣) ، **لَقَسَمْتُهُ بيْنكُمْ ، ثُمَّ لا تَجدُوْنَني بَخيْلاً ، ولا كَذُوْبًا ، ولاَ جبَانًا** » (٤) .

قالَ ابنُ حجرٍ - رحمه الله - : « وفيه الخصَالُ المذكورةُ ، وهي : البُخْلُ ، والكَذبُ ، والجُبْنُ ، وأنَّ إمامَ المسلمين لا يصلحُ أنْ يكونَ فيه خَصْلَةٌ منها » (٥) .

وقالَ الصَّحابيُّ الجليلُ البَرَاءُ بْنُ عازبٍ واصفًا شَجَاعَتَهُ - ﷺ - : « كنَّا - واللهِ - إذا أحمرَّ البأسُ نتَّقي به ، وإن الشُّجاعَ منَّا للَّذي يُحَاذي به » (٦) .

والجُبْنُ شرٌّ استعاذ منه رسولُ اللهِ - ﷺ - فَقَدْ كان من دعائه : « **اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ منَ الجُبْنِ** » (٧) .

---

(١) رواه البخاريُّ في الجهاد (٢٨٢٠) ، وفي الأدب (٦٠٣٣) ، ومسلمٌ في الفضائل (٢٣٠٧) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٢) .

(٢) **العضَاه** : كُلُّ شجَرٍ عظيمٍ له شَوْكٌ ، واحدها عضَةٌ .

(٣) **نعَمًا** : أي إبلاً .

(٤) رواه البخاريُّ من حديث جُبَيْر بن مُطْعِم في الجهاد (٢٨٢١) ، وفي فرض الخُمُس (٣١٤٨) ، والنَّسائيُّ من حديث ابن عمرو في الهبة (٣٧١٨) .

(٥) « فتح الباري » (٦/٢٥٤) .

(٦) رواه مسلم .

(٧) رواه البخاريُّ في الجهاد (٢٨٢٢) ، والتِّرمذيُّ في الدَّعوات (٣٥٦٧) ، والنَّسائيُّ في الاستعاذة (٥٤٤٧) عن سعدٍ .

واعتبرهُ - ﷺ - شرَّ صفاتِ الرَّجلِ ، فقال : « **شَرٌّ ما في الرَّجُلِ : شُحٌّ هَالِعٌ ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ** » (١) .

وتَكْمُنُ شجاعةُ الخطيب في رباطة جأشه (٢) ، وسكونِ خاطرِه ، واطمئنانِ نَفْسه ، فهو يُواجهُ الجُمُوعَ وعليه السَّكينةُ ، واثقاً من نَفْسِه ، مؤمناً بما يقولُ ، قديراً على ضَبْطِ الموقف.

والخطيبُ الشُّجاعُ يَهْدأُ - أَحْياناً - في موقف الهُدُوءِ، فيلطفُ صوتُهُ ، وتَخفُّ نَبْرتُهُ ، ويزمجرُ في موقف الإثارة والقوَّة، فيَشدُّ الحاضرين ، ويُلْهِبُ القلوبَ بسياطِ وَعْظِه ، ويصكُّ صوتُهُ الآذانَ ، فتصلُ حرارةُ كلماته إلى سُوَيْدَاءِ القلوب (٣) .

لَكَ اللهُ، ما هذي الشَّجَاعَةُ في الْوَغى(٤) ؟! أأَنْتَ زَحُوْفُ السَّيْلِ، أَمْ أَنْتَ حَيْدَرَةْ(٥) ؟!
تَقَدَّمْتَ حتَّى هَابَتِ البِيْضُ(٦) وَالقَنَا(٧) وَصَارَتْ رِمَاحُ القَوْمِ فيكَ مُكَسَّرَةْ!



(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥١١) ، والبخاريُّ في التَّاريخ عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٧٠٩) ، والصَّحيحة (٥٦٠) .
(٢) **الجأش** : القلْب والصَّدر .
(٣) انظر « مملكة البيان » لعائض القرنيّ (ص١٣) .
(٤) **الوَغَى** : الحرب .
(٥) **حيدرة** : من أسماء الأسد .
(٦) **البِيْضُ** : السُّيُوفُ ، والمفرد أبيضُ .
(٧) **القَنَا** : الرِّماح ، والمفردُ قَنَاةٌ .

١٠- عُلُوُّ الهِمَّةِ

من الضَّروريّ أنْ يتَّصفَ الخطيبُ بعُلُوّ الهمَّة ؛ لأنَّ الهمَّةَ العالية تُكْسِبُهُ الشجاعةَ الأدبيَّةَ ، والجدَّ والإباءَ، والتَّرفُّعَ عن الدَّنايا ، واستصغارَ متَاعِ الدُّنيا ، فلا يُريقُ ماءَ وَجْهِه في سبيلِ الحُصُولِ على غرضٍ زائلٍ ، أو يُفْني عُمْرَهُ بَحْثًا عن مَنْصبٍ أو جَاهٍ ، يكونُ مُنْتَهَى طُمُوحِه ، بل يرى أنَّ الجنَّةَ هي مُنْتَهى غايته، فهي التي يجبُ أنْ يَسْعَى لها سَعْيَهَا ، ومتى اتَّصف الخطيبُ بعُلُوّ الهِمَّة، فلنْ يرضى بما دُونَ الغَاية منَ العلْمِ والعَمَلِ ، ولنْ يقنعَ بالدُّون من البلاغة وجميلِ البَيَان ، ولَنْ يَقْعُدَ عن البلاغِ المبين ، ولنْ يلتفتَ إلى الصَّغائر ومُحَقَّرات الأمور ؛ فَـ « **إنَّ اللهَ – تبارك ، وتعالى – يُحبُّ مَعَالِيَ الأمورِ ، ويَكْرَهُ سفَاسِفَهَا** » (١).

ومن وصيَّة إمام دار الهجرة : « وعليك بمعالي الأمور وكرائمها ، واتَّقِ رذائلَها ، وما سفَّ منها ؛ فإنَّ اللهَ – سبحانه وتعالى – يُحِبُّ مَعَالِيَ الأمورِ، ويَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا» (٢).

ومن درر ابن الجوزيّ – يرحمه الله – : « مِنْ عَلاَمَةِ كَمَالِ العَقْلِ عُلُوُّ الهمَّةِ، والرَّاضي بالدُّونِ دَنِيءٌ » (٣).

---

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (١٣١/٣) (٢٨٩٤) عن الحُسَيْنِ بن عليّ ، وابْنُ عَديّ في الكامل (٨٧٩/٣) ، والحاكمُ ، وأبو نعيم في الحلية ، وأبو الشيخ عن سَهْلٍ ، وابن عساكر ، وابن النَّجار عن سَعْد ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٨٩٠)، والصحيحة (١٣٧٨) .

(٢) « أقوال مأثورة وكلمات جميلة » (ص٥٥٣) عن «ترتيب المدارك» (١٨٧/١ – ١٨٨) .

(٣) « صيد الخاطر » (٣٩/١) .

ومن جميل ما يُذكَرُ عن ابن طوقان قولُهُ :

كَـفْكفْ دُمُـوعَكَ ؛ لَيْس يَنْـ ـفـعُكَ البُكَاءُ ، ولا العَـويلُ
وانْهَضْ ، ولاَ تَشْكُ الزَّمَـا نَ ؛ فَـمَـا شَكَا إلاَّ الكَسُـولُ
وَاسْلُكْ بِهِـمَّـتِكَ السَّبِيْـ لَ ، ولاَ تَقُلْ : كَيفَ السَّبِيلُ؟
مَـا ضَلَّ ذُو أَمَلٍ سَـعَى يَوْمًـا ، وَحِكْمَـتُـهُ الدَّلِيلُ
كَـلاَّ ، ولاَ خَـابَ امْـرُؤٌ يَوْمًـا ، وَمَقْـصَدُهُ نَبِيلُ (١) .

ووفد النابغة حسَّانُ بْنُ قَيْسٍ الجَعْديُّ على رسولِ الله – ﷺ – فقال: « يا رسولَ الله ، عندي قصيدةٌ » . قال رسولُ الله – ﷺ – : « **قُلْ** » . قال :

تذَكَّرْتُ، والذِّكْرى تهيجُ عَلَى الفتَى وَمِنْ عَـادَةِ المَحْـزُونِ أَنْ يَتَـذَكَّـرَا
بَلَغْنَا السَّمَا جُوْدًا وَمَجْدًا، وسُؤْدَدًا(٢) وَإِنَّا لَنَرْجُـو – فَـوْقَ ذَلِكَ – مَظْهَـرَا

فتبسَّمَ رسـولُ الله – ﷺ – وضَحِكَ ، وقالَ : « **إلى أين المَظْهَرُ ، يا أبا ليلى ؟** » . قال : « إلى الجنَّةِ ، يا رسولَ الله » . قال : « **لا فُضَّ فُوكَ !** » (٣) .

وقال عُمَرُ بْنُ عبد العزيز : « إنَّ لي نفسًا توَّاقَةً ، لم تَزَلْ تَتُوقُ إلى الإمارة، فلمَّا نلْتُها تاقتْ إلى الخلافة ، فلمَّا نلْتُها تاقتْ إلى الجنَّة » (٤) .

وقيل للعتابيِّ : « فلانٌ بعيدُ الهِمَّة » . قال : « إذًا ليس له غايةٌ دُونَ الجنَّةِ» (٥) .

(١) « ديوان إبراهيم طوقان » (ص ٦٥ – ٦٦) .
(٢) **السُّؤْدَدُ** : الشَّرفُ والمجدُ والسِّيادةُ .
(٣) انظر « الإصابة » (٣٩٤/٦) و«مَجْمَع الزوائد » (١٢٦/٨) .
(٤) « عيون الأخبار » (٢٣١/١) .
(٥) المرجع السابق (٢٣٣/١) ، وأخرجه الحارث في مسند الحارث « زوائد الهيثميّ » (٨٩٤) ، وأبو محمَّد الأنصاريُّ في «طبقات المحدِّثين بأصبهان» (٢٧٥/١) .

١١ - التَّوَاضُعُ

لا شكَّ - أخي الخطيبَ - أنَّ مَجَامعَ حُسْنِ الأخلاقِ التَّوَاضُعُ ، وضِدُّهُ الكِبْرُ ، وهو جامعٌ لمساوئ الأخلاقِ .

والتواضعُ أهمُّ طُرُقِ اكتسابِ الحكْمَةِ ، وإصابةِ الصَّوابِ في الأقوالِ والأفعالِ ، فعن ابن عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال : « **ما منْ آدميٍّ إلاَّ في رَأْسه حكْمَةٌ بيَد مَلَك ، فإذا تواضَعَ قِيلَ للْمَلَك : ارفعْ حكْمَتَهُ ، وإذا تَكَبَّرَ قيل لَلْمَلَك : ضَعْ حكْمَتَهُ** » (١) .

والتواضعُ يُكْسِبُكَ المودَّةَ والمحبَّةَ ، ويجعلُ لكلامك لَذَّةً وأريحةً ، وارتياحًا ، وانشراحًا .

والعاقلُ يعلمُ أنَّ التَّكَبُّرَ يُؤَدِّي إلى كراهيَته ، وكَرَاهة ما عندَهُ من الحقِّ ، فقد نقَلَ الشَّاطبيُّ عن أبي حامدِ الغزاليِّ - رحمهما الله - قولَهُ : « أكثرُ الجهالات إنَّما رسختْ في قُلُوبِ العَوَامِّ بتعصُّبِ جَهَلَةِ أَهْلِ الحقِّ ، أظهروا الحقَّ في مَعْرِضِ التَّحدي والإذلال ، ونظروا إلى ضُعَفَاءِ الخُصُومِ بعَيْنِ التَّحقير والازدراء ، فثارتْ في بَوَاطنهمْ دواعي المعاندة والمخالفة ، ورسَخَتْ في قُلُوبهم الاعتقاداتُ الباطلةُ ، وتَعَذَّرَ على العُلماءِ المتلطِّفين مَحْوُها مع ظهورِ فسادها » (٢) .

أي أخي الخطيب ، اعلمْ ـ حفظكَ اللهُ ، وبارك فيك ـ أنَّه قَدْ تكون عندَ

---

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (١٢/٢١٨) ، وله شاهدٌ من حديث أبي هريرة عند البزَّار ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٥٦٧٥) ، والصَّحيحة (٥٣٨) .

(٢) « الاعتصام » (٢/٢٣٠) .

الإنسان الضَّعيف الظَّلوم الجَهُول – مِثْلي ومِثْلك – خَصْلَةٌ مِن خصَال الكِبْر لا يُتَفَطَّن لها ، حتَّى إنَّ أحدَنا يرَى صديقًا له ، وتنفرجُ أساريرُه ، ويهشُّ له ، ويبشُّ على انقباضٍ منه ، ويرى آخرَ إلى جواره يهشُّ له ، فلا يأبَهُ به، وربَّما لاحَ(١) له أنَّه يُريدُ حاجةً ، وهذا من أبوابِ الكِبْرِ ، وأبوابُه الغامضةُ كثيرةٌ .

قال الشاعر :

تَواضَعْ تكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِنَاظِرٍ عَلَى صَفَحَاتِ المَاءِ وَهُوَ رَفِيعُ
وَلا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بنَفْسِهِ إِلَى طَبَقَاتِ الجَوِّ وهُوَ وَضِيعُ

ومن التَّواضع ألاَّ تستخدمَ أسلوبَ الأَمْرِ والنَّهْيِ في خَطَابَتِكَ ، ووَعْظِكَ ، ودَعْوَتِكَ ؛ فإنَّ الحُكَمَاءَ لا يَسْتَخْدِمُونَ هذا الأسلوب إلاَّ مَعَ أولادهم ، وأزواجِهم، وخَدَمِهم لعلمهم أنَّ أسلوبَ الترغيب والترهيب أقصرُ طريقٍ إلى القُلوب والعُقُولِ ، وهو الذي يَحْصُلُ به طُمَأْنِينَةُ النُّفوسِ ، وشِفَاءُ الصُّدور ، ولكنْ إذا كُنْتَ ذا سُلْطَانٍ ، أو شيخَ عِلْمٍ ، ومَنْ حولَك هُمْ طُلاَّبٌ لك – فهنا لا بَأْسَ من استخدامِ الأَمْرِ والنَّهْيِ .

قال البُحْتُرِيُّ :

دَنَوْتَ تَوَاضُعًا ، وَعَلَوْتَ مَجْدًا فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضٌ وَارْتِفَاعُ
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى(٢) وَيَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا والشُّعَاعُ!

ومن السُّنَّة رَفْعُ الخطيب صَوْتَهُ مِنْ غَيْرِ تكلُّفٍ يُخْرِجُهُ عن حدِّ الاعتدال ، مثل : الحدَّة ، والغلْظَة ، والزُّعاق ؛ وإنَّما الطريقةُ المُتَّبَعَةُ أنْ يرفعَ صَوْتَه بحيث يَظْهَرُ عليه الوَقَارُ ، وحُسْنُ السَّمْتِ من غيرِ تَكلُّفٍ لهما .

---
(١) **لاحَ** : ظَهَرَ .
(٢) **تُسامى** : تفاخر .

قال أبو نُوَاسٍ :

حَذَّرتكَ الكِبْرَ ، لا يَغْشَاكَ مَيْسَمُهُ   فَإِنَّهُ مَلْبَسٌ ، نَازَعْتَهُ اللهَ
يا بُؤْسَ ذي جِلْدٍ في جَوْفِ مجوفه   يَحْوِي مَقَاذِيرَ ، إنْ كَلَّمْتَهُ تَاهَا
إِنِّي لأَمْقُتُ نَفْسِي عِنْدَ نَخْوَتِهَا   فَكَيْفَ آمَنُ مَقْتَ اللهِ إِيَّاهَا ؟!

ومنَ التَّواضعِ أن تُخاطبَ النَّاسَ بما يُمْكِنُهُمْ عَمَلُه، وبما يمكنهم تفاديه، ولا تُضيِّقْ عليهم بالإطالة والإطناب في إيراد البديهيَّات .

ومن تواضعِ الخطيبِ النَّاجحِ أنْ يبقى على سَجيَّته ، فيدَعُ الوقَارَ المتصنَّعَ ؛ حتَّى لا يُظَنُّ به الظُّنونُ ، فإنَّ الوقَارَ الذي يفرضُهُ العِلْمُ له نورٌ وجلالٌ وجمالٌ، والهيبةُ هبةٌ من الله ، يهبها مَنْ يشاءُ من عبادِه .

وأخيرًا قال السُّهيليُّ :

تَوَاضَعْ إِذَا كُنْتَ تَبْغِي العُلا   وكُنْ راسِيًا عِنْدَ صَفْوِ الغَضَبْ
فَخَفْضُ الفَتَى نَفْسَهُ رِفْعَةٌ   لَهُ ، واعْتَبِرْ بِرُسُوبِ الذَّهَبْ



١٢- الاسْتِقْلالُ

الخطيبُ النّاجحُ مُسْتَقلٌ بشخصيَّته، جارٍ على سَجِيَّته (١)، غيْرُ مُقلِّد لغيره في صَوْته، وحَرَكَاته، وإشارته، فالتّقْليدُ والتكلُّفُ عادةٌ غيرُ حَميدةٍ، تدلُّ على الانهزام، وضَعْفِ الشّخْصيَّة، ودُنُوِّ الهمَّة.

قال الله – سبحانه وتعالى – لنبيِّه: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦].

وقالَ عُمَرُ بْنُ الخطّاب – رضي الله عنه – : « نُهينا عَنِ التّكلُّف » (٢).

ومعلومٌ أنَّه قد وجد المقتضي لهذا في عَصْرِ النَّبيِّ – ﷺ – ، وعصر صَحَابَته – رضي الله عنهم – ومع ذلك لم يُعْلَمْ أنَّ الصَّحَابَةَ كانوا يحاكون صَوتَ رسول الله – ﷺ – في قراءته للقرآن، أو خطَابَته، أو خطَابه مع شدَّة حُبِّهم له، وقَدْ عُلِمَ في « الأصول » : « أنَّ تركَ العَمَلَ بالشَّيْءِ في عَصْرِ النَّبيِّ – ﷺ – مع وجودِ المُقْتضي له يدلُّ على عدمِ المشروعيَّة ».

ولله درُّ الشَّاعرِ حيثُ قال :

يأيُّها المُتَحلِّي غَيْرَ شيمَتِه (٣) ... ومَنْ شَمَائلُه (٤) التَّبْديلُ والمَلَقُ (٥)
ارْجعْ إلى خُلقكَ المَعْروفِ دَيْدنُه (٦) ... إنَّ التَّخلُّقَ (٧) يأتي دونَه الخُلُقُ (٨)

---

(١) **السَّجيَّة** : الخُلُق والطَّبيعة ، والجمع سَجَايا .
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٣/٢٢٩) .
(٣) **الشِّيمة** : الخلق ، والجمع شِيَم .
(٤) **الشَّمائل** : الأخلاق ، مفردها شمال .
(٥) **المَلَقُ** : الوُدُّ واللُّطفُ الظَّاهران ، ومنه : الرَّجلُ المَلِق : وهو الذى يُعطي بلسانه ما ليس في قلبه.
(٦) **الدَّيْدَنُ** : الدَّأْب والعادة .
(٧) **التَّخلُّقُ** : أنْ يَتلطَّفَ الإنسانُ غيْرَ خُلُقه .
(٨) **يقول** : لا تتكلَّفْ ما ليس من خُلُقكَ؛ لأنَّك إنْ فَعَلْتَ ذلك غلبك طبعُكَ، وانكشف للنَّاسِ تصنُّعُكَ.

وقال أبو الطيّب :

وأَسْـرَعُ مَـفْـعـولٍ فَـعلْتَ تغـيُّـرًا   تكَلُّفُ شيءٍ فـي طِبَـاعِكَ ضِـدُّهُ

أخي، إنَّكَ لتَعْجَبُ لظاهرة المُحَاكَاة والتقليد في الصَّوْت، والحَرَكات، والإشارَات، كُلٌّ بحَسْبِ مَنْ أَعْجَبَهُ أو أَعْجَبَ النّاسَ، حتى أصبح عندنا كشْكُ اليمن ، وقطّانُ اليمن ، وقَرَنيُّ اليمن .

فحريٌّ بالخطيب أنْ يتركَ التقليدَ بجميعِ صورِه ، فما قلّد خطيبٌ غيْرَهُ إلاَّ سَقَطَ مِنَ العُيُون ، وانصرفتْ عَنْهُ الأسماع، وظَلَّ موضعَ النَّقْد والسُّخرية، وما مَثَلُ مَنْ يُقلّدُ غيرَهُ إلا كَمَثَلِ الغُرابِ الذي أَعْجَبَهُ مَشْيُ الحَجَلَة ، فرَامَ أنْ يَتعلَّمَهُ، فَصَعُبَ عليه، ثُمَّ أرادَ أَنْ يرْجِعَ إلى مَشْيِه فَنَسِيَهُ ، فَبَقِيَ مُخَبَّلَ المَشْي، كما قيل :

إنَّ الغُـرَابَ – وكـان يمشي مِـشْـيَـةً   فيمـا مَضَى مِنْ سَالف الأجيـال –
فَحَسَدَ القطَا [١] وأرادَ يَمشي مَشْيَها   فـأصـابهُ ضَـرْبٌ [٢] مِنَ العُـقَّـالِ
فـأضَلَّ مِـشْـيَـتَـهُ، وأَخْطَأَ مَـشْـيَـهـا   فـلـذاك كَنَّوْهُ أبا مِــــرْقَــــالِ



(١) **القطَا** : ضَرْبٌ من الطّير، يُشبهُ الحمام ، واحده قَطَاة .
(٢) **ضَرْبٌ** : نوع ، جمعه أَضْرُبٌ ، وأَضْرابٌ ، وضُرُوبٌ .

١٣ - القناعة والعفة

لكي يُحبَّكَ النَّاسُ؛ عليك بالزُّهْد عمَّا في أيديهم ، فأنظارُ النَّاسِ مُتَّجهةٌ إليك ، فالناسُ لا يُوقِّرون مَنْ يأخذُ منهم ؛ وذلك أنَّ النَّاسَ جُبِلُوا على حُبِّ المالِ .

قال - تعالى - : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ٢٠] .

فمتى نازعتَ الناسَ فيما يُحبُّون ، كرهوك واستثقلوك ، ومن ثَمَّ جاءتْ النُّصوصُ تحثُّ على التَّعفُّفِ ، وقصرِ النَّظر عمَّا في أيدي الناس .

قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] .

وعن أبي العبَّاس سَهْلِ بْنِ سَعْد السَّاعديِّ - رضي الله عنه - قالَ : جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يا رسولَ الله ، دُلَّني على عَمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ أحبَّني اللهُ ، وأحبَّني النَّاسُ » . فقال : « ازْهَدْ في الدُّنْيا يُحبَّك اللهُ ، وازْهَدْ فيما عِنْدَ النَّاسِ يُحبَّكَ النَّاسُ » (١) .

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ - رضي الله عنه - : أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - فأعطاهم ، ثُمَّ سألوه فأعطاهم ، حتى نَفِدَ ما عندهُ ، فقال : « ما يَكُنْ عندي مِنْ خيْرٍ ، فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ ، ومَنْ

---

(١) رواه ابن ماجَهْ في الزُّهد (٤١٠٢) ، والحاكم في الرقاق (٣١٣/٤) ، والطَّبَرَانيُّ في الكبير ، والبيهقيُّ في الشُّعب ، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٢/٣ ، ٢٥٣) بأسانيد حسنة . قال الصَّنعانيُّ في «سبل السلام» : « وقد حسَّن النَّوويُّ الحديثَ لشواهده ، وحسَّن إسناده الشَّيخ شعيب في تحقيق «رياض الصَّالحين » . انظر حاشية «رياض الصالحين» (ص٢٤٢) ، وقد صحح الحديث الألبانيُّ في صحيح الجامع (٩٢٢) ، والصَّحيحة (٩٤٤) .

يَسْتَغْنِ يُغْنه الله ، ومَنْ يتَصبَّرْ يُصبِّرْهُ الله ، ومَا أُعْطِيَ أحَدٌ عطَاءً خيرًا وأوْسَعَ منَ الصَّبرِ » (١) .

وعن حكيمِ بْنِ حزامٍ – رضي الله عنه – قال : سألتُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – ، فأعطاني ، ثُمَّ سألتُهُ فأعطاني ، ثُمَّ سألتُهُ فأعطاني ، ثُمَّ قال :« يا حكيمُ ، إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فمَنْ أخَذَهُ بسخَاوَة نَفْسٍ – أي بغيرِ شَرَهٍ ، ولا إلحاحٍ ، وبغيرِ سؤالٍ – بُورِكَ لَهُ فيه ، ومَنْ أخذه بإشراف نَفْسٍ – أي طَمَعِ النَّفْسِ فيه ، وتطلُّعها إليه – لم يُبارَكْ له فيه ، كالذي يأكلُ ولا يشبعُ ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ من اليَدِ السُّفْلَى » (٢) .

قال حكيمٌ : قلتُ : « يا رسولَ الله ، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا أَرْزَأُ (٣) أحَدًا بَعْدَكَ شيئًا حتى أُفَارِقَ الدُّنيا » . فكانَ أبو بكرٍ – رضي الله عنه – يدعو، حكيمًا إلى العطاء ، فيأبى أنْ يقبَلَهُ منه ، ثُمَّ عُمَرُ – رضي الله عنه – دَعَاهُ ؛ ليُعْطِيَهُ فأبى أنْ يَقْبَلَ منه شيئًا . فقال عُمَرُ : إنِّي أُشْهِدُكُمْ – يا مَعْشَرَ المسلمين – على حكيمٍ أنِّي أَعْرِضُ عليه حَقَّه من هذا الفَيْءِ ، فيأبى أنْ يأْخُذَهُ . فلم يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا من النَّاسِ بَعْدَ رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – حتَّى تُوُفِّيَ » (٤) .

ويفسِّر ابن حجرٍ سببَ ذلك بقوله : « وإنَّما امتنع حكيمٌ من أخذ العطاء – مع أنه حقُّه – ؛ لأنَّه خَشِيَ أنْ يقبلَ من أحدٍ شيئًا ، فيعتادَ الأخذَ ، فتتجاوز

---

(١) رواه البخاريُّ (١٤٦٩) ، ومسلمٌ (١٠٥٣) ، وأبو داود (١٦٤٤) ، والنَّسائيُّ (٢٥٨٩) ، رَوَوْهُ في الزَّكاة ، ورواه التِّرمذيُّ في البرِّ والصِّلة (٢٠٢٤) ، وأحمدُ في مسنده ، ومالكٌ في موطَّئه .

(٢) وفي حديث ابن عُمَرَ مرفوعًا : « واليدُ العُلْيَا : المنفقةُ ، والسُّفْلَى: السَّائلةُ » . أخرجه البخاريُّ (١٤٢٩) ، ومسلمٌ (١٠٣٣) ، وأبو داود (١٦٤٨) ، والنَّسائيُّ (٢٥٣٤) ، وهو عندهم في الزَّكاة ، وأخرجه أحمدُ في مسنده .

(٣) أصله من الرُّزْءِ وهو النُّقْصان ، أي لم يَنْقُصْ أحدًا شيئًا بالأخذ منه .

(٤) رواه البخاريُّ (١٤٧٢) ، ومسلمٌ (١٠٣٥) ، والنَّسائيُّ (٢٦٠٤) ، رَوَوه في الزَّكاة ، ورواه التِّرمذيُّ في صفة القيامة (٢٤٦٣) ، وأحمد في مسنده .

بـه نفسـه إلى ما لا يـريده ، فَفطَـمَهَا عن ذلك ، وترك ما يَريبُهُ إلى ما لا يَريبُه » (١) .

وعن عَـوْف بْنِ مـالكٍ – رضي الله عنه – قـال : كُنَّا عندَ رسـولِ الله – صلى الله عليه وسلم – تسْعَـةً، أو ثمـانيـةً ، أو سبعـةً ، فقـال :« **ألا تُبايعـون رسـولَ الله ؟** » . وكنَّا حَديثي عَـهْدٍ ببَيْعةٍ ، قلنا : « قد بايعناك ، يا رسولَ الله » . ثُمَّ قـالَ :« **ألا تبـايعونَ رسـولَ الله ؟!** » . قـال : فبسطـنا أيدينا ، وقلنا : « قد بايعناك – يا رسول الله – فعَلامَ نُبايعُكَ ؟! » . قال :« **على أنْ تَعْبدوا اللهَ ، ولا تشركوا به شيئًا ، والصَّلَوَات الخَمْسِ، وتُطيعوا** – وأسرَّ كلمةً خفيةً –**ولا تسألوا النَّاسَ شيئًا** » . فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النَّفرِ يسقُطُ سَوْطَ أَحَدِهِمْ ، فما يسأل أحدًا يُناوِلُه إيَّاه (٢) .

هُمُ القَوْمُ ، إنْ قَالوا أصابُوا، وإنْ دُعُوا أَجَـابوا، وإنْ أَعْطُوا أَطَابوا وأَجْـزَلُوا
وَلا يَسْـتَطِيْعُ الفَـاعِلُونَ فِـعَـالَهُمْ وَلَوْ حَـاوَلُوا في النَّائِبَـاتِ وأَجْـمَلُوا!

وفي حوارٍ مع أبي ذرٍّ – رضي الله عنه – قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – :« **كيف أنت وجوعًا يُصيبُ النَّاسَ ، حتى تأتيَ مَسْجدَكَ ، فلَا تستطيعُ أن تَرْجعَ إلي فِرَاشكَ ، ولا تستطيعُ أنْ تَقُومَ من فراشكَ إلى مَسْجدكَ ؟!** » قال : «قلتُ : اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ » . قال :« **عَلَيْكَ بالعفَّة** » (٣) .

والزُّهْد بما في أيدي الناس يُحبِّبُ المَرْءَ إليهم ، وفي وصيةٍ موجزةٍ قال

---

(١) «فتح الباري» شرح حديث (١٤٧٢) .

(٢) رواه مسلمٌ في الزكاة (١٠٤٣) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٢) ، والنَّسائيُّ في الصَّلاة (٤٦١) ، وابن ماجهْ في الجهاد (٢٨٦٧) .

(٣) رواه أبو داود في الفتن (٤٢٦١) ، وابن ماجَهْ في الفتن (٣٩٥٨) ، وأحمدُ في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، وابنُ حبَّانَ في صحيحه . انظر سنن ابن ماجه للألبانيِّ (٣١٩٧) ، والإرواء له (٢٤٥١) ، وصحَّحه في صحيح الجامع (٧٨١٩) .

رسول الله - ﷺ - : « **وأَجْمِع اليأْسَ عمَّا في أيدي النَّاس** » [١] .

وفي وصيَّة جبريلَ لرسول الله - ﷺ - : « **واعْلَمْ أنَّ شرفَ المؤمنِ قيامُهُ باللَّيل ، وعزَّهُ استغناؤهُ عن النَّاسِ** » [٢] .

ومن اللطائف : أنَّ الصَّحابيَّ الجليلَ عبدَ الله بْنَ الأَرْقَم - ﷺ - طلب بعيرًا من بيت المال ، فعُرِضَ عليه جملٌ من الصَّدَقة ، فأبى واستنكر أنْ يُعْرَضَ عليه ذلك ، وقال لصاحبه : « أتحبُّ أنَّ رجلاً بادنًا في يومٍ حارٍ غسل لك ما تحت إزاره ورفغيه ، ثُمَّ أعطاكَهُ ، فَشربته ؟ » . فغضب الرجل ، وقال : « يَغفرُ اللهُ لكَ ، أتقولُ لي مثْلَ هذا ؟! » . فقال عبدُ الله بْنُ الأَرْقَمِ : « إنَّما الصَّدقةُ أوْسَاخُ النَّاس ، يغسلونها عنهم » [٣] .

قال عليُّ بْنُ أَحْمَدَ بْن الحَسَن :

إذَا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللِّئَامِ ... كَفَتْكَ القَنَاعَةُ شِبَعاً وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ في الثَّرى ... وَهَامَتُهُ [٤] في الثُّرَيَّا [٥]
أَبِيًّا [٦] لِنَائِلِ [٧] ذي نِعْمَةٍ ... تَرَاهُ بِمَا في يَدَيهِ أَبِيَّا
فَإنَّ إرَاقَةَ مَاءِ الحَيَاةِ ... دُونَ إرَاقَةِ مَاءِ المُحَيَّا [٨][٩]

---

(١) رواه ابن ماجهْ - واللَّفظُ له - في الزُّهد (٤١٧١) ، وأحمد في مسنده عن أبي أيُّوب. انظر صحيح ابن ماجهْ للألبانيِّ (٣٣٦٣) ، وصحَّحه في صحيح الجامع (٧٤٢) ، والصَّحيحة (٤٠١) .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه ، والشيرازي في الألقاب عن سهْلٍ السَّاعديِّ ، وأبو نعيم في الحلية عن عليٍّ ، والبيهقيُّ في الشُّعب عن سهلٍ ، وعن جابر ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٧٣) ، والصَّحيحة (٨٣١) .

(٣) الموطأ (٢/١٠٠١) الحديث (١٥) ، وقال الشيخ الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول (١٠/١٥٠) : « إسناده صحيح » .

(٤) **هامة** : رأسٌ ، والجمعُ هَام .

(٥) **الثُّريَّا** : سبعةُ نجوم منضمَّة بعضُها إلى بَعْضٍ ، تُشبهُ العنقودَ .

(٦) أي رافضًا كارهًا .

(٧) أي لمعطي خير .

(٨) **المُحيَّا** : الوَجْه .

(٩) « البداية والنهاية » (١٢/٣٥) .

وقال عليُّ بن الجَهْم :

هيَ النَّفسُ ، مَا حَمَّلْتَهـا تتَحَمَّلُ ... ولِلدَّهْرِ أيَّامٌ تَجُـورُ وتَعْـدِلُ
وعَاقِبَـةُ الصَّبْرِ الجَمِيْلِ جَمِيْلَةٌ ... وأَفْضَلُ أَخْلاقِ الرِّجَالِ التَّفَضُّلُ
ولاَ عَـارَ إنْ زَالَتْ عَنِ الحُـرِّ نِعْمَـةٌ ... ولَكنَّ عاراً أن يَزُولَ التَّجَمُّلُ [١][٢]

وقال الإمامُ الشَّافعيُّ :

صُنِ النَّفْسَ، واحْمِلْها على ما يزينُها ... تَعشْ سالمًا، والقَوْلُ فيكَ جميلُ
ولا تُولِيَنَّ النَّاسَ إلاَّ تجمُّـلاً ... نبَا بكَ دهْرٌ [٣] أوْ جفَاكَ خليلُ [٤]
وإنْ ضاقَ رِزْقُ اليومِ فاصبِرْ إلى غدٍ ... عسى نَكبَاتُ الدَّهْرِ عنكَ تزولُ [٥]

إذًا لابدَ للخطيب أنْ يكونَ غنيَّ النَّفسِ، قانعًا بما آتاه اللهُ ، فعن عبد الله بن عَمْرو - رضي الله عنهما - قال : قال رسولُ الله - ﷺ - : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، ورُزِقَ كَفَافًا ، وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتاهُ » [٦] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قالَ : قالَ رسولُ الله - ﷺ - : « لَيْسَ الغنى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ [٧] ، ولكن الغنَى غِنَى النَّفْسِ » [٨] .

ولله درُّ الشاعر حين قال :

ومَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ في جَمْعِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ ، فَالَّذي فَعَلَ الفَقْرُ

---

(١) **التَّجمُّل** : التَّصبُّر .
(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٣٢) .
(٣) **نبا بك** : جفاك وأعرض عنك .
(٤) **خليل** : الصَّديق الخالص الناصح، جمعه أخلاَّء، وخُلاَّن .
(٥) «ديوان الشَّافعيّ» تحقيق البقاعيّ (ص٩٨) .
(٦) رواه مسلمٌ في الزَّكاة (١٠٥٤) ، والتِّرمذيُّ في الزُّهْد (٢٣٤٨)، وابن ماجَهْ في الزُّهْد (٤١٣٨)، وأحمد في مسنده .
(٧) **العَرَضُ** : ما يُنْتَفَعُ به من مَتَاعِ الدُّنيا .
(٨) رواه البخاريُّ في الرِّقاق (٦٤٤٦) ، ومسلمٌ في الزَّكاة (١٠٥١) ، والتِّرمذيُّ في الزُّهْد (٢٣٧٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٧) ، وأحمد في مسنده (٢٤٣/٢ و ٢٦١ و ٣١٥) .

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه الله - : « فغنيُّ النَّفس الذي لا يستشرف - أي يتطلَّع - إلى المخلوق ، فإنَّ الحرَّ عبدٌ ما طَمِعَ ، والعبدَ حُرٌّ ما قَنِعَ .

وقد قيل : أطعتُ مطامعي ، فاستعبدتْني . فكره أنْ يتبعَ نَفْسَهُ فتستشرف به؛ لئلاَّ يبقى في القلب فَقْرٌ وطَمَعٌ إلى المخلوقِ ؛ فإنَّهُ خِلافُ التَّوكُّلِ المأمورِ به، وخِلافُ غِنَى النَّفْسِ » (١) .

ولكي تتوافر في المسلم دواعي القناعة والعفَّة بشَرَفٍ وعِزَّةٍ ؛ دعاه الإسلامُ إلى العملِ ، فعن الزُّبير بن العوَّامِ - رضي الله عنه - عن النَّبيِّ - ﷺ - قال : « **لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ، فيَأْتِيَ بحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِه ، فَيَبِيْعَهَا ، فَيكُفَّ اللهُ بهَا وَجْهَهُ - خيرٌ له منْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ ، أَعْطَوْهُ ، أَوْ مَنَعُوْهُ** » (٢) (٣) .

وعن ثوبانَ - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله - ﷺ - : « **مَنْ تَكَفَّلَ** - أي ضَمِنَ - **لي ألاَّ يَسْأَلَ النَّاسَ شيئًا ، وأَتكَفَّلُ لَهُ بالجنَّة ؟** » .

فقال ثوبانُ : « أنا » فكان لا يسألُ أحدًا شيئًا . (٤)

وإذا عَلمنا ما كان عليه حالُ رسولِ الله - ﷺ - هانَ علينا أنْ نَقْنَعَ بما نحن فيه ، فقد وصفَ حَالَهُ النُّعمانُ بْنُ بشيرٍ بقوله : « لَقَدْ رَأَيْتُ نبيَّكُم ، ومَا

---

(١) «الفتاوى» (٣٢٩/١٨) .

(٢) رواه البخاري في الزَّكاة (١٤٧١) ، وابن ماجَهْ في الزَّكاة (١٨٣٦) ، وأحمد في مسنده ، ورواه عن أبي هريرة مسلم (١٠٤٢) ، والترمذيُّ (٦٨٠) ، والنَّسائيُّ (٢٥٩٠) ، رووه في الزَّكاة ، ورواه مالك في موطَّئه (٩٩٨/٢ ، ٩٩٩) .

(٣) ذكر ابن حجر - رحمه الله - في «الفتح» (٣٣٦/٣) ، من فوائد الحديث : « الحضُّ على التَّعفُّفِ عن المَسألة ، والتَّنزُّهِ عنها ، ولو امتهن المرء نَفْسَهُ في طلب الرِّزق ، وارتكب المشقَّة في ذلك » .

(٤) رواه أبو داود (١٦٤٣) ، والنَّسائيُّ (٢٥٩١) ، وابن ماجَهْ (١٨٣٧) ، وهو عندهم في الزَّكاة ، ورواه أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه . وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦٦٠٣ ، ٦٦٠٤) .

يَجدُ مِنَ الدَّقَلِ (١) ما يملأُ به بَطْنَهُ » (٢) .

وفي حديث أبي هريرةَ أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - كان يدعو : « **اللَّهُمَّ اجعلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا** (٣) » (٤) .

لكنْ هناك حالة ، وهي إذا جاءَكَ مالٌ من شَخْصٍ ، ولم تكنْ نَفْسُكَ مُشْرِفةً لهذا المالِ ، فحينئذٍ يجوز لك أَخْذُهُ ، فعن عُمَرَ بْنِ الخطَّاب - ﷺ - قال : كانَ رسولُ الله - ﷺ - يُعطيني العطاءَ ، فأقول : « أَعْطِه مَنْ هو أَفْقَرُ إليه منِّي » . فقال : « **خُذْهُ ، إذا جاءك منْ هذا المالِ شَيْءٌ - وأنت غيرُ مُشْرِفٍ ولا سائلٍ - فخُذْهُ ، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ** » (٥) .

قال الحافظ ابْنُ حَجَرٍ - رحمه الله - : « والتحقيقُ في المسألة أنَّ مَنْ علِمَ كَوْنَ ماله حلالاً فلا تُرَدُّ عَطِيَّتُهُ ، ومن علم كون ماله حراماً فتَحْرُمُ عطيَّتُهُ ، ومَنْ شَكَّ فيه فالاحتياطُ رَدُّهُ وهو الوَرَعُ ، ومَنْ أباحه أخذَ بالأصل .

قال ابن المنذر : واحتجَّ مَنْ رَخَّصَ فيه بأنَّ اللهَ - تعالى - قال في اليهود: ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ** ﴾ [المائدة : ٤٢] .

وقدْ رَهَنَ الشَّارِعُ دِرْعَهُ عند اليهوديِّ مع عِلْمِه بذلك ، وكذلك أَخَذَ الجِزْيَةَ منهم مع العِلْمِ بأنَّ أكثرَ أموالِهِمْ من ثَمَنِ الخَمْرِ، والخِنْزِيرِ ، والمعاملاتِ الفاسدة » (٦) .

---

(١) **الدَّقَل** : رديء التَّمر .

(٢) رواه مسلمٌ (٢٩٧٧) ، والترمذيُّ (٢٣٧٢) ، وابن ماجهْ (٤١٤٦) ، رَوَوْه في الزُّهد ، ورواه أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، والطَّبرانيُّ في الكبير .

(٣) **القوتُ** : ما يَسُدُّ الرَّمَق .

(٤) رواه البخاريُّ في الرِّقاق (٦٤٦٠) ، ومسلم في الزَّكاة ، وفي الزُّهد (١٠٥٥) ، والتِّرمذيُّ في الزُّهْد (٢٣٦١) ، وابن ماجهْ في الزُّهْد (٤١٣٩) .

(٥) رواه البخاريُّ (١٤٧٣) ، ومسلمٌ (١٠٤٥) ، والنَّسائيُّ (٢٦٠٦) ، رَوَوْه في الزَّكاة .

(٦) « الفتح » (٣/٣٩٦) .

ومن هنا تعلم - أخي الخطيب - لماذا كان العلماءُ يُلَقّنون طُلاَّبَهم حفْظَ قصيدة الجرجانيِّ عليِّ بن عبدِ العزيز (١) - رحمه الله - ، كما نجدها عند عددٍ من مُتَرْجِميه ، ومطْلَعها :

يَقُولُون لِيْ : فِيْكَ انْقِبَاضٌ ، وإنَّما ... رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُم (٢) هَانَ عِنْدَهُمْ ... ومَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِما
ومَا زِلْتُ مُنْحَازًا بعِرْضِيَ جَانبًا ... مِنَ الذَّمِ ، أَعْتَدُّ الصِّيانَةَ مَغْنَمَا
إذَا قِيلَ : هَذَا مَشْرَبٌ قُلْتُ : قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لاَحَ لِي يستَفِزُّني ... ولاَ كُلُّ أَهْلِ الأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعِما
وَلَمْ أَقْضِ حقَّ العلْمِ، إنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرتُهُ لي سُلَّمَا
ولَمْ أَبْتَذِلْ في خِدْمَةِ العلْمِ مُهْجَتي (٣) ... لأَخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ ، لَكِنْ لأُخْدَمَا
أَأَشْقَى به غَرْسًا ، وأَجْنِيهِ ذِلَّةً ؟! ... إذًا فاتِّباعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
ولَوْ أنَّ أَهْلَ العلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... ولَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ تَعْظَّمَا
وَلَكِنْ أَذَلُّوهُ جِهَارًا ، ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأَطْمَاعِ حتَّى تَجَهَّمَا (٤)

---

(١) هو قاضي القضاة أبو الحسن عليُّ بن عبدِ العزيز الجرجانيُّ ، كان أريبًا أديبًا ، قال عنه الثعالبيُّ : «القاضي أبو الحسن حَسَنَةُ جرجان ، وفَرْدُ الزَّمان ، ونادرة الفلك ، وإنسانُ حدَقَةِ العلم ، ودُرَّةُ تاجِ الأدب ، وفارسُ عسكر الشِّعْرِ ، يجمعُ خطَّ ابْنِ مُقلة إلى نثْرِ الجاحظ ، ونَظْمِ البُحْتريِّ » . توفي سنة ٣٩٢ هـ .

(٢) **داناهم** : خَضَعَ لهم .

(٣) **المُهْجة** : النفس والرُّوح، جمعها مُهَجٌ .

(٤) « شرح ديوان المتنبي » للبرقوني (١/١١٧ - ١١٨) .

١٤- لُزُومُ المُرُوءَةِ

المُرُوءَةُ: خَصْلَةٌ شريفةٌ ، وسَجِيَّةٌ جُبلَتْ عليها النفوسُ الزَّكِيَّةُ ؛ فعلى الخطيبِ أنْ يلزمَ المروءةَ ؛ فإنها تبعثُ على إجلالِ صاحبها ، وامتلاءِ الأعين بمهابته ، وهي راحة الضمير التي يجدها الرَّجُلُ عندما يبلغُ في المروءةِ غايةً ساميةً ، تُنْسيه كُلَّ مشقَّةٍ ، ولا يبقى معها للتَّعب باقيةٌ .

إنَّ المُرُوءَةَ لَيْسَ يُدْرِكُهَا امْرُؤٌ ... وَرِثَ المُرُوءَةَ عَنْ أَبٍ فَأَضَاعَهَا
أَمَرَتْهُ نَفْسٌ بالدَّنَاءَةِ وَالخَنَا ... وَنَهَتْهُ عَنْ سُبُلِ العُلا فَأَطَاعَهَا
فَإِذَا أَصَابَ مِنَ الأُمُورِ عَظِيْمَةً ... يَبْنِي الكَرِيْمُ بِهَا المُرُوءَةَ بَاعَهَا [١]

ولقد عُرِّفَت المروءةُ بتعريفاتٍ عديدةٍ لا تكاد تُحصر ، وكلُّها قريبةٌ بعضها من بعضٍ ، فممَّا قيل في تعريفِ المروءة ما يأتي :

١- هي كمال الرجولة .

٢- هي صيانة النَّفس عن كُلِّ خُلُقٍ رديءٍ .

٣- وقال الأحنفُ بْنُ قَيْسٍ : المروءة : العفَّةُ والحِرْفَةُ .

٤- وقال ميمونُ بْنُ ميمون : أوَّلُ المروءةِ طلاقةُ الوَجْهِ ، والثَّاني التَّوَدُّدُ ، والثالثُ قضاءُ الحَوَائِجِ .

٥- وقال ابْنُ هبيرةَ : المروءةُ : إصلاحُ المالِ ، والرَّزانة في المجلس .

٦- وقيل : المروءة : هي المفاكهة ، والمباسمة .

٧- وقيل : المروءة : مُجانبةُ الرِّيبة ؛ فإنَّه لا يَنْبُلُ مُريبٌ، وإصلاحُ المالِ ؛ فإنَّهُ لا يَنْبُلُ فقيرٌ، وَقيامُهُ بحوائج أَهل بيته؛ فإنَّه لا يَنْبُلُ مَنِ احتاجَ أهلُ بيْتِهِ إلى غيره .

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٢٩) .

٨- وقيل : المروءة : النظافةُ ، وطيبُ الرَّائحة .

٩- وقيل : المروءة : إنصافُ الرَّجُل مَنْ هو دُونَه ، والسُّمُوُّ إلى مَنْ هو فَوْقَهُ ، والجزاءُ بما أُتيَ إليه .

١٠- وقال براهام بن براهام : المروءة : اسمٌ جامعٌ للمحاسنِ كُلِّها .

١١- وقال الشربيني : أحسن ما قيل في تفسير المروءة : أنَّها تخلُّقُ المَرْءِ بأخلاق أمثاله مِنْ أبناء عَصْرِه، مِمَّنْ يُراعي مناهجَ الشَّرْعِ ، وآدابَه في زمانه ومكانه.

١٢- وقيل : هي ألَّا يأتيَ الإنسانُ ما يعتذرُ منه ، مِمَّا يحطُّ مرتبتَه عند أهل الفَضْلِ .

١٣- وقال ابْنُ حِبَّانَ : « اختلفتْ ألفاظُهُم في كيفيَّةِ المروءةِ ، ومعاني ما قالوا قريبةٌ بعضُها من بعضٍ .

والمروءة عندي خَصْلَتان : اجتنابُ ما يَكْرَهُ اللهُ والمسلمون من الفِعَالِ ، واستعمالُ ما يُحبُّ اللهُ والمسلمونَ من الخِصَالِ » [١] .

ومنابع المروءة :

الكتاب ، والسُّنَّة ، وآثارُ السَّلَف ، وهناك آدابٌ ذكرها الأخُ محمَّد بن إبراهيم الحمد ، يزداد بها معنى المروءة وضوحًا ، وترتفع منزلة القائم بها درجاتٍ :

١- أنْ يكونَ المَرْءُ ذا أَنَاة وتُؤَدَة ، فلا يبدو في حركته اضطرابٌ أو عجلةٌ : كأنْ يُكْثِرَ الالتفاتَ ، أو يعجلَ في مشيته عجلةً خارجةً عن حدِّ الاعتدال ، وأمَّا السُّرعةُ – بمعنى عدم التَّباطُؤ – فدليلُ الحَزْمِ ، ومن مقوِّماتِ المروءة.

٢- حُسْنُ البَيَانِ ، وجمالُ المَنْطِقِ ، والتَّرسُّلُ في الكلامِ .

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٣٢) .

٣- حفْظُ اللّسان عن أعراضِ النّاسِ ، وعن ساقط القولِ ومرذوله .

٤- مُلاقاةُ النّاسِ بوَجْهٍ طَلْقٍ ، ولسانٍ رَطْبٍ دُونَ بَحْثٍ عمّا تُكِنُّهُ صدورُهُم ، وتَنطَوي عليه سرائرُهم .

كان الحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ يقول : « المروءةُ والشَّرَفُ في البِشْرِ [1] ، ولا يصلُحُ للصَّدرِ إلاّ واسعُ الصَّدْرِ » .

٥- الإصْغَاءُ لِمَنْ يتحدَّثُ ، ولو كان حديثُهُ مُكرَّراً معلوماً .

٦- ألاّ تطيشَ به الولايةُ في زَهْوٍ [2]، ولا ينزل به العَزْلُ في حَسْرةٍ .

٧- ضَبْطُ النَّفْسِ عِنْدَ هيجَانِ الغَضَبِ ، أو دَهْشَةِ الفَرَحِ .

٨- الوقوفُ موقفَ الاعتدالِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ . قال البعيث :

وَلَسْتُ بِمفْرَاحٍ ، إذا الدَّهْرُ سَرَّني ... وَلا جازِعٍ مِنْ صَرْفِه [3] المُتَقَلِّبِ

٩- إكرامُ الضَّيْفِ ، والتَّطلُّقُ له ، والقيامُ على خدْمَته ، وألاّ يُكلِّفَ المَرْءُ زائريه بأيِّ عملٍ ولو قلَّ : كأنْ يَطْلُبَ مِنْ ضَيْفِهِ أنْ يَنَاوِلَهُ كتاباً، أو كأساً ، أو نَحْوَ ذلك ، خصوصًا إذا كان الضيفُ غريبًا ، أو ليس ممَّن ترفعُ عنه الكلفةَ .

قال عمر بن عبد العزيز : « ليس مِنَ المروءة استخدامُ الضَّيفِ » .

١٠- ألاّ يفعلَ المرءُ في السِّرِّ ما يَسْتَحِي منه في العَلانيَةِ ، ممّا يُخِلُّ بالمروءةِ ، ويُزري بصاحبها .

١١- لزومُ الحياء .

١٢- صدْقُ اللَّهْجَة .

١٣- حِفْظُ الأسرارِ .

١٤- العَدْلُ والإنْصَافُ .

---

(١) البِشْر : الفرح والبَشَاشة ، وطَلاقَة الوَجْه .

(٢) الزَّهْو : الكِبْر والفَخْر .

(٣) صَرْفُ الدَّهْرِ : نوائبُه ومصائبُه ، جمعه صُرُوفٌ .

١٥- العفَّة عمَّا في أيدي الناس .
١٦- الغيْرةُ على الدِّينِ والمحارمِ .
١٧- كبرُ النَّفْسِ ، وعُلُوُّ الهِمَّةِ .
١٨- الوفَاءُ للإخوانِ .
١٩- قضَاءُ حوائجِ النَّاسِ .
٢٠- التَّودُّدُ إليهم .
٢١- لزومُ التَّواضعِ .
٢٢- تَحمُّلُ ضيقِ العيْشِ .
٢٣- تجنُّبُ إظهارِ الشَّكْوَى .
٢٤- تجنُّبُ المَنِّ [١] .
٢٥- الحذَرِ من إيذاءِ الآخرينَ .
٢٦- البرُّ والصِّلةُ للوالدَيْنِ والأرْحَامِ.
٢٧- مقابلةُ الإساءةِ بالإحسانِ .
٢٨- قَبولُ المعاذيرِ .
٢٩- السَّخاءُ في كافَّةِ صورِهِ .
٣٠- صيانةُ العِرْضِ .
٣١- السَّماحةُ بالبيعِ والشِّراءِ .
٣٢- الإتحافُ بالهدايا .
٣٣- الحلْمُ وكَظْمُ الغيْظِ .
٣٤- إنزالُ النَّاسِ منَازِلَهُم .
٣٥- نظافةُ البَدَنِ .
٣٦- طيبُ الرَّائحَةِ .
٣٧- العنَايَةُ بالمَظْهَرِ .
٣٨- قَبولُ النَّقْدِ الهادفِ .
٣٩- تَجنُّبُ الفُضولِ من الطَّعَامِ ، والكلامِ ، والمنامِ ، ومخالطةِ الأنَامِ .
٤٠- مُراعَاةُ العادةِ والأعْرافِ ، ما لم تُخَالفِ الشَّرْعَ .
٤١- مجالسةُ أَهْلِ المروءاتِ .
٤٢- استكثارُ القليلِ من معروفِ الآخرينَ .
٤٣- القيامُ بحُقُوقِ الجيرانِ .
٤٤- التَّقْوى؛ فهي جِماعُ المروءةِ ، وأوَّلُها ، وآخرُها ، وواسطةُ عقدِها .

(١) المَنُّ : تعديد الإحسان على المُنْفَق عليه ، وطلب مقابلته منه .

الخَاتِمَةُ

وأخيراً بعد هذا المشوار الممتع في رحاب الخطابة ، التي هي أصلٌ مهمٌّ من أصولِ الدَّعْوَة إلى الله ، والدَّعوةُ إلى الله عَرْضٌ ، وكُلَّما كان العرضُ حسناً جذاباً ، أقبل عليه النَاسُ من كُلِّ حَدَبٍ وصوبٍ ، ووجدوا فيه لَذَّةً وأريحةً وانشراحاً .

فموقع الخطابة موقع تذوُّقٍ ، وأسماعٍ ، وأفهامٍ ، وعُقُولٍ ، وبصائرَ .

وأوْلى الناس بهذا الموضوع زملائي طلبةُ العلْم ، وإخواني الدُّعاةُ في كُلِّ مكانٍ ، فهم مَدْعُوُّون إلى أخذِ زمامِ الخطابة بَعْدَ أَنْ ظلَّ رَدَحًا [١] من الزَّمان بأيدي أهل الأهواء ، يُوجِّهونَ به العامَّةَ بأسلوبهم الجذَّاب ، ويُلَبِّسُونَ عليهم بسحْرِهم الذي يأخذُ بالألباب .

ومهما بذلت من جهدٍ من أجلِ أنْ يَخْرُجَ هذا الموضوع بالصُّورة التي تَفي بالغرضِ – فلا يزالُ هناك نَقْصٌ ، فعلى من رأى خطأ أو نَقْصًا أنْ يُرْشِدَني إلى الصواب مشكوراً.

وقديمًا قال إبراهيمُ الصُّوليُّ : « **المُتَصَفِّحُ** للكتابِ أَبْصَرُ بمواقعِ الخَلَلِ فيه مِنْ مُنشئه » [٢] .

وقال المنَاويُّ – **رحمه الله** – : « **فيأيُّها** الناظرُ ، اعمل فيه بشرط الواقف من استيفاء النظر بعين العناية ، وكمال الدِّراية [٣] ، لا يحملْكَ احتقارُ مؤلِّفه على التَّعسُّفِ ، ولا عن الحظِّ النفسانيِّ على أنْ يكونَ لك عن الحقِّ تخلُّفٌ ،

---

(١) **رَدَحًا** – **بفتحتين** – : وقتًا طويلاً .

(٢) انظر « الأعلام » للزركليِّ (٤/١) .

(٣) **الدِّراية** : المهارة في الفَهْم والاستنباط ، واستخراج أحكام المسائل .

فإنْ عَثَرْتَ منه على هَفْوةٍ أو هَفَوَاتٍ ، أو صَدَرَتْ فيه عنّي كَبْوةٌ أو كبوات – فما أنا المتحاشي عن الخَلَلِ ، ولا بالمعصوم من الزَّلَل ، ولا هو بأوَّلِ قارورةٍ كُسِرَت ، ولا شُبْهةٍ مدفوعةٍ زُبِرَتْ ، ومَنْ تفرَّدَ في سُلوكِ السَّبيل ، لا يأمنْ من أنْ ينالَه أمرٌ وبيلٌ .

فرحم اللهُ امرأ قَهَرَ هَوَاهُ ، وأطاعَ الإنصافَ وقوَّاه ، ولم يعتمدْ العَنَتَ ، ولا قَصَدَ مَنْ إذا رأى حسنًا ستره ، وعَيْبًا أظهره ونَشَرَهُ ، وليَتأمَّلْهُ بعين الإنصاف ، لا بعينِ الحَسَد والانحراف ، فمن طلبَ عيْبًا – وجدَّ – وَجَدَ ، ومَنْ افتقدَ زَلَلَ أخيه بعين الرِّضى والإنصافِ فقدْ فَقَدَ ، والكمالُ مُحَالٌ لغير ذي الجلال» [1] .

وفي الختام أسألُ اللهَ - تبارك وتعالى - بأسمائه الحُسْنَى وصفاته العلُى أنْ ينفعَنَا بهذا الكتابِ ، وأنْ يجعلَهُ خالصًا لوجْهِهِ الكريم ، وأنْ يغفرَ لي ولوالديَّ يومَ الدِّين .

وآخرُ دعوانا أنِ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين . واللهُ أعلمُ .



(١) « فيض القدير » (٣/١) .


فهرس

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثاني

الباب الثالث





فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠